فن التعبير
في
مختارات شعراء العرب

لابن الشجري

هبة الله بن على أبو السعادات العلوى المعروف بابن الشجرى

٤٥٠ هـ — ٥٤٢ هـ

شرح ونقد وتحليل

دكتور عبد العزيز عرفه

مدرس البلاغة والنقد

بكلية البنات الإسلامية

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م

دار الطباعة المحمدية

بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبيه وعبده ، محمد بن عبد الله ، سيد البلغاء وشيخ الفصحاء ، وخاتم المرسلين والأنبياء .

وبعد

فهذه دراسة بلاغية فى كتاب « مختارات شعراء العرب » لابن الشجرى سرنا فيها على منهج ارتأيناه نافعا فى الكشف عن عناصر الجمال فى الشعر العربى .

ذلكم المنهج الذى يقف متأنيا ، أمام مفردات النص متبينا مدى الإصابة فى اختيار الكلمة ومدى تمكنها من جملتها ، وقوة التئامها بجاراتها .

ثم يقف متأملا التصرفات البلاغية التى يحدثها الأديب ؛ ليعبر بها عما فى نفسه ـ كاشفا مدى ارتباط النص بعضه ببعض ، ومدى تضافر أجزائه على رسم الصورة التى يريد الشاعر إبرازها .

آملين أن يكون هذا القصد هو سبيلنا إلى فهم أسرار لغتنا وتذوق عناصر الجمال فيها .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ؟

د/ عبد العزيز عبد المعطى عرفه

تمهيد

العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة وذلاقة اللسان ، وخلابة الألسنة ، واستمالة الأسماع بحسن منطقهم قال تعالى : « وإن يقولوا تسمع لقولهم » .

ففي غضون العصر السابق للدعوة الإسلامية ، توفرت للغتهم عوامل أسرعت بها نحو النضج والكمال ، وذلك بفضل الأسواق التي كانوا يقيمونها على مدار أشهر السنة ، يتناشدون الأشعار ، ويتبارون في عرضها ، ونقدها ، واختيار أحسنها ، ويتنافسون في ذلك أشد التنافس .

كما حدث في شبه الجزيرة العربية أحداث اجتماعية وسياسية ، أخصبت الأخيلة وغذت المشاعر ، وصقلت الأفكار فقد كثرت الرحلات إلى البلاد المجاورة فتنوعت المشاهدات ، وسمت حياة العرب المادية بعض السمو ، والتهبت نيران الحروب للتخلص من القحطانيين تارة أو للمخاصمات بين العدنانيين أنفسهم ربعيين ومضريين تارة أخرى هذه الحياة هاجت العرب ، وأثارت شعورهم وحركت عقولهم .

وعادت على اللغة بالخير الجزيل ، فتهذب ألفاظها ، وفصحت مفرداتها واكتسبت كلماتها الجارية خفة على اللسان ، ورشاقة على السمع ، خاصة لغة القرشيين الذين يسكنون مكة حاضرة العرب ؛ فقد كانوا على استعداد قوى لإصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم فأخذوا من لغات القبائل الوافدة

عليهم فى موسم الحج وفى الأسواق الأدبية التى كانت تقام بمكة وما حولها حتى عذب لسانهم ورقت حواشى لغتهم ، وصاروا أفصح العرب وتغلبت لهجتهم على لهجات العرب الأخرى من جميع القبائل .

فلما أن جاء وقت نزول القرآن الكريم كانت اللغة العربية جديرة بأن يختصها الله من بين اللغات لتكون لغة قرآنه الكريم .

وجاء الإسلام فأيقظ العرب من رقادهم الطويل وأحدث فيهم ثورة فكرية منقطعة النظير ، وذلك بفضل القرآن الكريم الذى أنزله الله جل وعلا لتحقيق غرضين أساسيين :

كونه معجزة هذا الدين الجديد ، ودلالة صدق على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكونه كتاب هداية للناس جميعا لما فيه صلاحهم فى دنياهم ، وأخراهم وكان الذوق الأدبى السليم ، والطبع العربى الأصيل يقومان بتحقيق هذين الغرضين إبان عصر صدر الآسلام .

ولكن ماكاد هذا العصر يشرف على نهايته ، ويجىء القرن الثانى الهجرى حتى أخذ الذوق العربى ينحرف ، وبدأت الملكات تضعف . وبدأ بالتالى الإحساس ببلاغة الكلام يقل ، خاصة عند العرب الذين خالطوا الأعاجم ، أو بعدوا عن موطن اللغة الأصلى ، أو عند طبقة الموالى الذين أخذوا العربية تعلما لا سليقة .

وذلك أنه بنهاية حروب الردة التي حدثت فى عهد الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه ـ تم للإسلام السيادة على الجزيرة العربية كلها ، وبمقتضى عموم الرسالة الإسلامية ، عمل المسلمون على نشر دينهم إلى الممالك المجاورة :

وقد حقق الله لهم النصر — ففتح العراق ، و أنشأ العرب مدينتى البصرة والكوفة ، كما فتحت فارس ، والشام ، ومصر .

وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند ، وبخارى ، وخوارزم ، وسمرقند إلى كاشغر وفتحت الأندلس (١) .

ولم تكد تدخل تلك البلاد فى دولة الإسلام ، حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى امتزاجاً قوياً ، وأصبحنا نرى أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة .

وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء العربى حتى غدت كأنها جنس واحد .

وقوى هذا الامتزاج ، واشتد ذلك الإنصهار بقيام الدولة العباسية ، وتمتع غير العرب بمبدأ التسوية الذى قرره الإسلام ، واستطاعوا أن يصلوا إلى أعلى المراتب المختلفة للدولة .

وكان لهذا الإمتزاج أثره الخطير فى اللغة العربية : فقد انتشرت ، واتسعت رقعتها ، وكثر عدد الناطقين بها ، بإسراع من أسلم من الشعوب المفتوحة إلى تعلم لغة القرآن الكريم مصدر فخر المسلمين وسبيل سعادتهم فى الدارين .

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٨٥ الطبعة الثامنة نشر مكتبه النهضه .

« وكثير منهم لا يكتفى بتعلم اللغة العربية ، بل يريد أن يتقنها ويتقن آدابها ، وأن يكون له حظ موفور من هذه الآداب (١) » .

وكانت رغبتهم فى فهم القرآن الكريم للوقوف على أسرار إعجازه ، ودقائق تشريعاته ، من أهم الأسباب التى جعلتهم يقبلون على تعلم اللغة العربية ، وإتقان آدابها . ووضع العلوم المختلفة لحمايتها ،فالمسلم تتطلع نفسه أول ماتطلع إلى إدراك أو معرفة معجزة هذا الدين الجديد التى أعجزت العرب ببيانها العجيب ، ونظمها البديع ، وهم أرباب النظم وأمراء البيان — والتى أحدثت فى العرب انقلابا اجتماعيا منقطع النظير ، فى وقت قصير ، ولا سبيل إلى ذلك إلا تعلم اللغة العربية والنبوغ فيها .

وهناك أسباب ثانوية تضاف إلى ذلك : منها اتخاذ اللغة العربية ، وسيلة إلى الوصول إلى أرقى المناصب المختلفة للدولة ، أو تملق الحكام الفاتحين أصحاب اللغة الأصليين .

وقد أستفادت اللغة نفسها من هذا الإمتزاج ، فهى قد لانت وسهلت وأخذت من المرونة بحظ عظيم ، واستطاعت أن تسع آداب الهند وفلسفة اليونان ، وثقافة الفرس(٢)، كما عربت،وأستحدثت فى اللغة ألفاظ جديدة من لغات الأعاجم فزادت ثروتها فى الألفاظ .

ولكنها من ناحية أخرى تسرب إليها الفساد وتطرق إليها التحريف واللحن الذى بدأ فى عهد رسول الله ﷺ نادرا ، ثم ظهر فى عهد الدولة الأموية فى أهم الأوساط ، حتى جاء العصر العباسى فتمكن من خلق اللغة

---

(١) من حديث الشعر والنثر د/طه حسين ص ١١ — الطبعة العاشرة — دار المعارف .

(٢) من حديث الشعر د/ طه حسين ص ١٢

الدارجة التى اعترف بها الجاحظ إذ يقول : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده (١) » .

ويقول الخطابى فى هذا الصدد ما نصه : « وزعم بعضهم أن الكلام كان باقيا على نجره الأول وعلى سنخ طبعه الأقدم إلى زمان بنى أمية ، ثم دخله الخلل واختل منه أشياء ، ولذلك قال أبو عمرو حين أنشد قول امرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلوجة   كر لامين على نابل

ذهب من يحسن هذا الكلام

وأخبرنى أبو عمر عن أبى الحسن العباس عمن ذكره : أن أبا عمرو أنشد قول الحارث بن حلزة :

زعموا أن كل من ضرب العير موال لنا وأنا الولاء

فقال : ذهب من يحسن هذا الكلام ، قلت : ولهذا صار العلماء لايحتجون بشعر المحدثين ، ولا يستشهدون به كبشار بن برد والحسن بن هانىء ودعبل والعتابى وأحزابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين فى صنعة الشعر ونجره .

وإنما يرجعون فى الاستشهاد إلى شعراء الجاهليين وإلى المخضرمين ، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام فى الزمان المتأخر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأول (٢) .

---

(١) البخلاء للجاحظ ص١٠٩ ج ٢ سنة ١٩٦٣ م دار اليقظة العربية تحقيق أحمد طاهر كوجان .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص ٤٢ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن — دار المعارف .

كما كان لهذا الامتزاج أثره فى الدين أيضا لقد انتشر وشمل الملايين من البشر ، لكنه ابتلى بأفراد متشبعين « بأفكار خبيثة خلفتها لهم مالهم ونحلهم ، وبميول منحرفة معادية للعرب نافسة عليهم ما تحقق لهم من مجد قام على أنقاض المجد الأعجمى ، حاقدة على القرآن محور الرسالة التى غيرت وجه التاريخ ، فهدمت سلطانهم ، وبه صار العرب إلى ماصاروا إليه من الرفعة والسيادة والسلطان .

ولما كان القرآن الكريم معجزة خالدة ، كان لابد من متابعة دلائل الإعجاز فيه فى كل زمان ومكان للذين يتصلون بهذا الدين وتتصل بهم أسبابه (١) » .

ولا يمكن ذلك إلا بالمحافظة على سلامة الذوق العربى الأصيل ، ليتمكن من فهم القرآن الكريم ، والأدب العربى بعامة ، وتذوق عناصر الجمال فيهما ، وبذلك تظل قضية الإعجاز القرآنى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

من أجل ذلك قام علماء المسلمين بجهود محمودة تجاه « القرآن الكريم ولغته » ففسروا تراكيبه ، ودرسوا أسلوب بيانه ، ووضحوا مجمله ، وبينوا أسباب نزوله وأوجه قراءاته كما شرحوا غريبه ، وقاموا بوضع علم « النحو » و « اللغة » لحمايته والتمكن من فهمه ، يقول ابن خلدون : « فلما جاء الاسلام وفارق (العرب) الحجاز ، لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ،

---

(١) انظر نظرية عبد القاهر فى النظم ص ١٤ د / درويش الجندى نهضة مصر سنة ١٩٦٥

وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة، بمـا ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمتعربين من العجم، والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشى أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد؛ فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه، وجعلوها لهم صناعة مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم «النحو».

ثم إن العلماء كتبوا فيها كثيراً إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى ثم أخذها «سيبويه» فكمل تفاريعها.

ووضع فيها كتابه المشهور الذى صـار إماما لكل ما كتب فيها من بعده(١).

ويقول بصدد علم «اللغة» هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية، وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماه عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلنا.

ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم، حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المستعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس،

---

(١) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ٤ ج ص ١٢٤٥، ١٢٥٦ ج ١ الأولى - لجنة البيان العربى.

وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن الكريم والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين(١) .

فواضح من النقل عن ابن خلدون أن السبب المباشر فى وضع « علم النحو » و « اللغة » تسرب الفساد واللحن إلى « اللغة العربية » سواء كان فى أواخر الكلمات أو استعمالها فى غير موضعها الأصلى .

وظهر أيضاً من كلامه أن الغرض من وضعهما هو إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، وهما أساس الدين وقوامه .

واحتاج النحاة واللغويون حينما طفقوا يقننون اللغة العربية ويضعون أسسها ، أو يحددون مداول اللفظ — إلى الشاهد العربى الخالص — من الشعر والنثر والحكمة والمثل .

كما احتاج المفسرون إلى اللغة والشعر لشرح غريب القرآن الكريم ، وفهم تراكيبه ، ودراسة بيان أسلوبه ، ومقارنته بالشعر العربى ليظهر لهم علو أسلوبه .

فهب الرواة واللغويون يجمعون اللغة والشعر من موطنهما الأصلى فخرجوا إلى البادية لهذا الغرض يقتصون أثر الشعر أنى يكون وكان بعضهم يلتقى بالأعراب الوافدين على المدينة(٢) .

وحينما طفق الرواة يجمعون الشعر لم يضعوا لأنفسهم قانونا يسيرون عليه . بل كان جل همهم الجمع والاستقصاء وألا يند عنهم شيء من شعر القبيلة ، أو ديوان الشاعر .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢٨ ج٤

(٢) أنظر طبقات الشعراء الجاهليين لابن سلام ص ٢٣ ، ٢٤

ذكر صاحب الفهرست أن الشيبانى جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وأن السكرى جمع أشعار ذهل وشيبان وكنانة وغيرها من القبائل . كما جمع دواوين امرىء القيس والفرزدق وغيرهم من الشعراء .

وقويت حركة التدوين . وشجع جمع اللغة والشعر وروايته العلماء على التأليف حول القرآن واللغة والشعر .

ونظر العلماء إلى « الشعر » ووجدوا أن لهم تراثا عظيما منه ، والشعر ديوان العرب ، وسجل حياتهم ، ومصدر فخرهم ، وأحسن ما أثر عنهم من كلام ، وأصح علم عند العرب كما يقول(٢) سيدنا عمر بن الخطاب .

ولكن حاجة المثقفين من الشباب الإسلامى الذى يدرس اللغة وآدابها لكى يحافظ على ذوقه العربى من الانحراف ، دعت العلماء أن يصنعوا لهم اختيارات من الشعر العربى تعينهم وتصل بهم إلى غرضهم المنشود ، فظهرت كتب الاختيار من الشعر تقدم للدارسين عيون الشعر العربى على جانب غير قليل من الترتيب والتيسير .

وقد كان للجاهليين منازعات ومناقشات حول بعض الأبيات الشعرية وبعض القصائد .

وحول أشعر شعرائهم ، فقد أثر عنهم قولهم : هذا أفخر بيت قالته العرب ، وهذا أهجى بيت ، وأغزله وكذلك روى عنهم أنهم أختاروا بعض القصائد فى الجاهلية وسموها المعلقات أو المذهبات والتى ذهب جمهور الرواة

---

(١) الفهرست لابن النديم . ١٠١ ، ١١٧ ، ٢٢٤ — ٢٢٦ روائع التراث العربى مكتبة خياط بيروت .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٧

أنها إنما سميت بذلك لأن العرب علقوها بأستار الكعبة إعجابا بها وإكباراً لقدرها كما كان للإسلاميين مجادلات حول الشعر والشعراء والذي وصل إلينا من كتب المختارات الشعرية نوعان: نوع يدور الإختيار فيه على القصيدة، فيضم كتاب الإختيار طائفة من جياد القصائد، لعل صاحب الإختيار كان يرمى إلى غرض أو مغزى من ضم هذه القصائد بعضها إلى بعض أو كان هذا الضم استجابة لحالة نفسية تملك عليه مشاعره وإن بدا هذا الجمع أنه أختيار مطلق وعمل لاتنسيق فيه .

وأول من صنف في هذا النوع « المفضل الضبي في مجموعته الشعرية العظيمة « المفضليات » .

وقد ظهر بعدها وعلى منهجها « الأصمعيات » لأبي سعيد عبد الملك ابن قريب الأصمعي، و« جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، و « مختارات شعراء العرب » لأبي السعادات ابن الشجري .

ونوع آخر يقوم الإختيار فيه على المقطوعة ، فالكتاب يضم طائفة من جياد المقطوعات، ولكنها موزعة على فنون الشعر، فصنف في الحماسة وصنف في المديح ، وآخر في الرثاء ، وهكذا - أي أنه اختيار قائم على الجمع والتصنيف على حسب أغراض الشعر .

وقد بدأ هذا النوع الشاعر المشهور « أبو تمام » بديوان الحماسة، وسار على نهجه « البحتري » ، والخالديان ، وأبو هلال العسكري ، وابن الشجري والأعلم الشنتمري في حماساتهم ، وأبو هلال العسكري في ديوان المعاني وغيرهم كثير .

و « مختارات شعراء العرب » لابن الشجري من النوع الأول وهي التي سنتناولها - بمشيئة الله - بالدراسة والنقد والتحليل في هذا الكتاب .

ويجدر بنا أن تقدم بين يدى عملنا كلمة موجزة عن حياة صاحب هذا الاختيار، وعن الإختيار نفسه - تكون لنا نبراسا ينير لنا الطريق ويعصمنا من الشطط والله ولى التوفيق .

ابن الشجرى

هو : الشريف أبو السعادات هبة الله بن على بن محمد بن حمزة الحسنى المعروف بابن الشجرى ، البغدادى .

كان إماماً فى النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها ، حسن الكلام ، حلو الألفاظ ، فصيحا ، جيد البيان والتفهيم ، كامل الفضائل متضلعاً من الأدب ، وصنف فيه عدة تصانيف .

وكان نقيب الطالبيين « بالكرخ » نيابة عن والده الطاهر ، وله مكانة عالية بين الناس حكى أبو البركات عبد الرحمن بن الانبارى : أن العلامة أبا القاسم محمود الزمخشرى لما قدم بغداد قاصدا الحج فى بعض أسفاره ، مضى إلى زيارة شيخنا أبى السعادات بن الشجرى فمضينا معه إليه ، فلما اجتمع به أنشده قول المتنبى :

وأستكثر الأخبار قبل لقائه   فلما التقينا صغر الخبر الخبر

ثم أنشده بعد ذلك :

كانت مساءلة الركبان تخبرنا
عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر
ثم التقينا ، فلا والله ما سمعت
أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

قال ابن الانبارى : فقال العلامة الزمخشرى : روى عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه لما قدم عليه زيد الخيل قال له : « يازيد ماوصف لى أحد فى الجاهلية فرأيته فى الإسلام إلا رأيته دون ماوصف لى ، غيرك » .

قال ابن الإنبارى : فخرجنا من عنده ونحن نعجب ، كيف يستشهد الشريف بالشعر والزمخشرى بالحديث وهو رجل أعجمى » .

وفى هذا النقل ما يدل على مكانة « ابن الشجرى » الروحية والأدبية حيث يخف لزيارته علم من الأعلام مثل «الزمخشرى» ويقول ابن الأنبارى عنه : إنه « شيخنا » ثم هو بعد ذلك نقيب الطالبيين .

وكانت ولادته فى شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة .

وتوفى يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، ودفن من الغد فى داره « بالكرخ » .

والشجرى ـ بفتح الشين المعجمة والجيم ، وبعدها راء ـ هذه النسبة إلى «شجرة» . وهى قرية من أعمال « المدينة » على ساكنها أفضل الصلاة والسلام « وشجرة » أيضاً اسم رجل ، وقد سمت به العرب ومن بعدها ،

وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم ، ويقول ابن خلكان : لا أدرى إلى من ينتسب الشريف المذكور منهما ، هل هو نسبة إلى القرية ، أم إلى أحد أجداده كان اسمه شجرة(١) . وينقل السيوطى عن ياقوت : أنه نسب إلى بيت الشجرى من قبل أمه . وقال بعضهم : لأنه كان فى بيته شجرة ، وليس فى البلد غيرها(٢) .

---

(١) وفيات الأعيان ٩٦ إلى ص ١٠٠ جـ ٥ تحقيق محى الدين .

(٢) بغيــة الوعاة للسيوطى جـ ٢ ص ٢٣٤ طبع البابى الحلبي الطبعة الأولى .

« مختارات شعراء العرب »

وكتاب « مختارات شعراء العرب » لابن الشجرى ، يضم مجموعة شعرية قيمة من جياد القصائد العربية . وقد بناه المؤلف على ثلاثة أقسام :

فى القسم الأول اثنتا عشرة قصيدة ؛ منها قصيدة للقيط بن يعمر الأيادى وقصيدة لقعنب ابن أم صاحب ، وقصيدة لأعشى باهلة ، وقصيدة لحاتم ابن عبدالله الطائى ، وقصيدة لبشامة بن عمرو ، وقصيدة للنمر بن تولب ؛ وقصيدة للشنفرى ، وقصيدة لكعب بن سعد الغنوى ، وقصيدتان للمتلمس وقصيدتان لطرفة .

وفى القسم الثانى خمس وعشرون قصيـــدة ، لزهير سبع ، ولبشر ابن أبى حازم ست ، ولعبيد بن الأبرص اثنتا عشرة وهى مختار شعره ومعظمه .

وفى القسم الثالث مختار شعر الحطيئة، وذلك ثلاث عشرة قصيدة سوى المقطوعات .

لم يقتصر عمل ابن الشجرى على الجمع والاختيار فحسب بل قام بشرح بعض الكلمات لغويا وأدبيا وتعرض فى شرحه إلى الإختلاف فى روايات الأبيات وأسند كثيراً من القصائد التى رواها كما تعرض لبعض المسائل النحويه والنقدية .

وكل هذا أثبتناه فى مكانه كما جاء فى أصول الكتاب الخطية وتحقيقا للفائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة دعتنا الضرورة الملحة إلى استكمال بعض القصائد من مراجعها المختلفة وأشرنا إلى ذلك فى مكانه وذلك

لنتمكن من رسم الصورة التى أراد صاحب القصيدة إبرازها وتوضيحها .

كما أننا نعتقد أن ابن الشجرى لم يضم هـذه القصائد بعضها إلى بعض كيفما جاءوا اتفق بل كان يرمى إلى غرض هام يريد تحقيقه من وراء هذه المجموعة الشعرية ذلك الغرض هو إصلاح المجتمع والمحافظة على كيانه فالطالبيون ظلوا مع المجتمع يحسون بنبضات قلبـه ويعتقدون بأنهم المسئولون عنه وينتهزون أية فرصة تسنح لهم يقدمون فيها خدماتهم لهذه الأمة الأمينة التى منحتهم حبها وقلبها وإن عز عليهم سلطانها .

لذلك نراه فى قصيدة «لقيط» يقدم صرخة وطنى غيور يطلب من أمته أن تقف صفاً واحداً فى وجه المستعمر الغاصب . وفى قصيدة قعنب نجده يقدم صوتا ناقداً لأوشاب المجتمع الذين يجعلون الحياة بجوارهم جحيما لا يطاق .

وقصائد الرثاء مجال طيب لعرض الصفات الحميدة التى يجب أن يتحلى بها الأحياء كما تحلى بها الأموات . وقصيدة حاتم الطائى أحلى ما يقدم لشبابنا اليوم وقصيدة بشامة زاد طيب تدعو إلى التمسك بالحق والقوة والمعالى وقريب منها قصيدة النمر بن تولب وعلى نمط ما سبق تسير قصيدة الشنفرى ، وكذلك شعر المتلمس وطرفه

وكذلك القسم الثانى كله يعرض أخلاقيات العرب التى لا غنى للشباب العربى عنها ويسجل ما كان عليه العرب من مجد قديم وعز أصيل .

والقسم الثالث وهو يتضمن شعر الحطيئة وشعره فى مجمله وتفصيله نقد بناء للمجتمات التى تريد أن يكون لها صوت مسموع ومكان مرموق ،

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن الشجرى ضمن كتابه كثيراً من الشرح اللغوى والأدبى وقد أثبتناه له بعد الأبيات المشروحة .

ثم جاء الأستاذ : محمود زناتى أمين الخزانة الزكية بقبة الغورى وطبع الكتاب سنة ١٢٤٤ ﻫ ، وقد حاول شرح الأبيات والتعليق عليها مستعينا بشرح « ابن الشجرى » ولكن هذا الشرح جاء مختصراً قد يكون مقصوراً على الناحية اللغوية يقول عنه : « إنه شرح ما أبهم معناه على القارىء وخفى مغزاه على المطالع » .

ثم تناول هذا الكتاب الأستاذ الفاضل على محمد البجاوى صاحب الأيادى البيضاء على التراث العربى ، وله الفضل الذى لا ينكر على دارسى ومحبى لغة الضاد فحققه تحقيقا علميا منقطع النظير وفسر بعض الألفاظ وشرح الأبيات التى تحتاج إلى شرح ومع قيمة هذه الشروح وإفادتنا منها إلا أنها أبقت لنا الكثير مما يلزم لاستبطان معنى الشعر العربى والتعمق فى استخراج أنواع جماله وفهم دقائقه وأسراره وسترى بمشيئة الله — أثناء مطالعتك لهذا الكتاب مقدار عملنا فيه .

وقد دعتنا حاجة الدراسة بكلية البنات الإسلامية أن نبدأ عملنا بقصيدة « قعنب ابن أم صاحب » ونثنى بقصيدة « بشامة بن عمرو » ونثلث بقصيدة « محمد بن كعب الغنوى » ثم نسير بعد ذلك على نظام الكتاب ، ولا ضرر فى ذلك حيث أننا سننبه القارىء على هذه المخالفة فى حينها ، وقد حان الحين لنعرض لك .

أول قصيدة تناولناها بالدراسة والتحليل .

قصيدة قعنب[1]

وقال قعنب ابن أم صاحب :

١ — بانت سليمى فأمست دونها عدَن
وَغُلقتَ عندها من قلبك الرهن

غلق الرهن فى يد مرتهنه : إذا لم يفتك

٢ — علقتُ سلمى على عصر الشباب فقد
أودى الشباب وسلمى الهم والحزن

علقتُ فلانة : حببت إلىَّ وهويتها . والعلاقة والعلق : الهواية . يقال نظرة ذى عَلقَ .

٣ — حلت بأبين فى حى مجاورةَ بنى وبينهم الأحقاد والدِّمن

٤ — واحتل أهلك من صرف النوى بهم
أرضا يحاك بها الكتان والقطن

النوى : التحول من دار إلى دار . والنية : الأمر والوجه الذى تنويه وقيل النّية والنّية والنوى والنأى كان : البعد .

٥ — أرضا بها الطعن والطاعون ينكؤهم
كما تُنحَّر فى لباتها البُدُن

البدَنة : التى تهدى إلى بيت الله جل وعز ، وسميت بذلك لسمنها ، وكانوا يستسمنونها .

---

(١) هذه القصيدة هى الثانية بترتيب صاحب الكتاب «ابن الشجرى» .

٦ — لا نوم إلا على خوف وزلزلة فيها ولا مال إلا السيفُ والبدن

البدن : الدرع .

٧ — وكل أسمرَ عرّاضٍ مَهزّتهَ كأنه بِرَجا عادّية شَطنَ

عراض : مضطرب

٨ — فانظر ، وأنت بصير ، هل ترى ظعناً

تحدى بنجد ، ومن أنىّ لك الظعن ؟

الظعينة : المرأة فى الهودج . والظعون : البعير الذى يحملها ، وجمعه ظُعُن ، وقيل : الظعن الهوادج كان فيها نساء أو لا .

٩ — وفى الخدور لو أن الدار جامعة

حور أوانس فى أصـــواتها غنن

الغُنّة : خروج الكلام بالأنف

١٠ — هل للعواذل من ناهٍ فيزجرها

إنّ العواذلَ منها الجوْر واللسنَ

لسنت الرجل ألسنه لسنا : إذا أخذته بلسانك ، واللسن الفصاحة ، واللسن : اللغة .

١١ — اللائمات الفتى فى أمره سفها

وهن بعد ضعيفات القوى وُهُن

١٢ — مهلا أعاذل قد جربت من خلق

أنى أجود لأقـــوام وإن ضننوا

١٣ — إذا غلا المجـــد فى مالى كسرت له

والمجـــد لايشـــترى إلا له ثمن

١٤ — مابالُ قومٍ صديقاً ثم ليس لهم

عهد وليس لهم دين إذا ائتمنوا

١٥ - إنْ يسمعوا ريبة طاروا لها فرحا
منى وما سمعوا من صالح دفنــوا

١٦ - صمٌ إذا سمعوا خيراً ذكرت به
وإن ذكرت بسوء عنــدهم أذِنوا

أذن : ومنه قول الأعشى :

إن همى فى سماع وأذن . وقوله . فى سماع يأذنُ الشيخ له

١٧ - وقد علمت على أنى أعايشهم لا نبرح الدهر فيما بيننا إحَنُ

١٨ - ولن يراجع قلبى ودّهم أبداً زكِنتُ من بغضهم مثل الذى زكنوا

زكنت منك كذا : أى علمته ، ولا يقال أزكنت ، وقدْ ذكر عن الخليل وقيل الزكن : الظن .

١٩ - مثل العصافير أحــلاماً ومقدرةً
لو يوزنون بِزِفٍّ الريش ما وَزَنوا

٢٠ - جهــلا علينا وجبنا عن عدوهم
لبئست الخلتان الجهــلُ والجُبُنُ

٢١ - مالى أسكن عن وَهْبَ وتشتمنى
ولو شتمت بنى وهب لقد سكنوا

٢٢ - كغارز رأسه لم يدنه أحد بين القرينين حتىَ لزَّء القرَنُ

القرينان : بعيران يشد أحدهما إلى الآخر . والحبل الذى يَشُدَّان به قِران وقرَن :

١ - التعريف بالشاعر :

شاعرنا هو : قعنب بن ضمرة الغطفانى ابن أم صاحــب وأم صاحب أمه .

وهو شاعر إسلامى مقل مجيد من شعراء الدولة الأموية عاصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك .

٢ ــ القصيدة والمناسبة .

وهذه القصيدة ليس لها مرجع ــ فيما نعلم ــ غير هذا الكتاب « مختارات شعراء العرب » لابن الشجرى .

وقد قالها «قعنب» فى أناس من قومه كانوا يناصبونه العداوة ويتتبعون عثرته ، فيشهرونها فى الناس .

٣ ــ الأفكار الأساسية .

١ ــ حديثه عن صاحبته سلمى من ١ ــ ٩ .

٢ ــ حديثه عن نفسه من ١٠ ــ ١٣ .

٣ ــ هجاؤه لأعدائه من ١٤ ــ ٢٢ .

٤ ــ جو النص

الشاعر هو ذلك الإنسان المرهف الشعور الرقيق الإحساس القوى العاطفة الذى يتأثر بما يدور فى نفسه وما يقع حوله من أحداث .

و « قعنب » شاعر حساس ، حاول أن يتعايش مع قومه فلم يفلح ، ناصبوه العدواة ، ووقفوا منه موقفا لا يرضاه ، فرحوا لسيئاته ونشروها ، واغتموا لحسناته وأخفوها .

هذا الموقف المعادى تأثر به الشاعر فصاغ لنا لوحة فنية رائعة .

بدأها بالحديث عن صاحبته «سلمى» فذكر أنها فارقته بعد أن ارتبط قلبه بها ارتباطاً لافكاك له ، وأنها وصلت إلى بلاد نائية ، هذه البلاد لاتنفك ميدانا لحروب متوالية ، ومرتعا لأمراض خبيثة ، فهو لا يستطيع

اللحاق بها ولا الوصول إليها ، ومن ثمَّ فهو يعيش فى فراغ ، وحيداً ، حزيناً يحتاج إلى مواساة الناس جميعاً والتعايش معهم خاصة قومه ، يواسونه ويخففون عنه آلامه .

وهو رجل جواد كريم يكرم الناس جميعا على تباين أخلاقهم ، والرجل الكريم يحب الناس جميعا ، ويحب التعايش معهم ، وخاصة قومه ، ولكنه لا حظ له فى معايشتهم لأنهم قوم سوء لا مبادىء لهم ولا أخلاق ، ولا وزن لهم ولا عقول ، إنهم ظالمون لأهلهم جبناء عن أعدائهم .

والشاعر فى كل هذه المعانى التى قدمها لنا وأقنعنا بها قد استعمل ببراعة جميع الألفاظ والتراكيب والصور التى وردت فى القصيدة وسخرها لتحقيق أغراضه التى يرمى إليها ، وهى : بعد سلمى عنه بعداً لا يمكنه اللحاق بها فهو يعيش وحيداً حزينا يحتاج إلى معايشة قومه ومواساتهم وهو رجل كريم ، والكريم يحب الناس جميعا على تباين أخلاقهم ، ولكن الشاعر لم يستطع أن يتعايش مع قومه لصفات لاصقة بهم تمنعهم من التعايش معه .

كل هذا فى أسلوب منمق جميل غنى بالتشبيهات ، والاستعارات والمحسنات البديعية ، والتصرفات البلاغية الجميلة التى أضفت على القصيدة رونقا وبهاء .

هذه هى المعانى التى تطفوا على سطح أبيات القصيدة . أما معانى الشعر نفسه فشىء آخر ، وقد حان الحين لعرضه عليك .

٥ ــ تحليل الأبيات

١ ــ حديثه عن صاحبته سلمى من ١ ــ ٩ .

١ ــ بانت سليمى فأمست دونها عدن
وغلقت عندها من قلبك الرهن

« بانت » من الأضداد ؛ لأنها تدل على الوصل ، والفرقة ، وهما ضدان ، ومعناها فى هذا البيت : نأت وفارقت فراقا بعيداً . و « سليمى » تصغير « سلمى » وأوردها الشاعر مصغرة ليومىء بأن سلمى لطيفة رقيقة ومن ثم فهو حزين على فراقها . « فأمست » سرعان ما جاء المساء ، والمساء يناسب هذا الجو النفسى الحزين على فراق « سلمى » ؛ لأن المساء له رهبته وسكونه ، و « عدن » مدينة تقع على ساحل البحر الأحمر ، والبحر له رهبته ووحشته ، و « عدن » الآن عاصمة اليمن الجنوبية . والرهن : ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك ، وجمعه : رهان ، ورهون ، ورهن . وغلق الرهن : استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك فى الوقت المشروط . أى إنها ملكت قلبه ، وأن قلبه ارتبط بها ارتباطا لا فكاك له . فالشطر الثانى من البيت كناية عن صفة ، وفيه استعارة بالكناية حيث شبه قلبه بالمال ، وحذف المال ، ورمز إليه بلازم من لوازمه وهو الرهن وغلقه . والاستعارة صورت حبه « لسلمى » وأبرزته ، وأشارت عملية الرهن إلى أن قلبه حزين على ضياع هذا الحب كما يحزن صاحب الرهن على ضياع رهنه ؛ لأن الراهن لا يرهن إلا الشيء العزيز الذى لا يحب أن يستغنى عنه . وغلق الرهن يوحى بالعجز الشديد المصحوب بالحسرة والألم .

والقلب هنا : الفؤاد ، وهو العضو المنظم لدورة الدم فى الجسم ، ومحله الجانب الأيسر من تجويف الصدر ، والعرب تعتقد أنه موضع الحس والشعور .

ولعل السر فى هـــذا الاعتقاد أن القلب أكثر أعضاء الجسم تأثراً بالإنفعالات النفسية واستجابة لها ، ويصح أن يراد بالقلب هنا العقل ، تلك الملكة التى يكون بها الإدراك ، ومن إطلاق القلب على هذه الملكة قو تعالى : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمــــع وهو شهيد) :

وقد جرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر وخاطبه فقال : « من قلبك » ولم يقل من « قلبي » وهذا يبث في الأسلوب الحيوية والنشاط والثراء والتشويق .

والمعنى : يفتتح الشاعر قصيدته بالحديث عن حبيبته سلمى ، فيذكر إنها نأت عنه ، وأبعدت في فراقها منه ، ثم يبين أثر هذا الفراق وهو أنه أصبح مضنى القلب مستعبداً بحبها . أسيراً مقيداً في هواها .

٢ ـ علقت سلمى على عصر الشباب فقد
أودى الشباب وسلمى الهم والحزن

علق فلان امرأة : أحبها ، ورجل علاقية : إذا علق شيئاً لم يقلع عنه .

والعلاقة : الحب اللازم . أودى الشباب : ذهب الشباب ، وأدخل « على » على « عصر الشباب » ، لأنه يقصد قمة الشباب أو زهرته . وعطف بالفاء في « فقد » ليقول : إنه سرعان ما ذهب هذا الشباب . والشاعر كرر « سلمى » في البيت مرتين ، وأعادها بلفظها بدلا من ضميرها ، كل هذا ليفرغ في هذا التكرار وذكر سلمى بلفظها ـ كثيراً من انفعالاته المتوترة ، وكثيراً ما يعتمد الشعراء على التكرار ، ويتخذونه وسيلة من وسائل التخفيف والإفراغ ، يلجأ إليها الشاعر ، ويجد فيها متعة وسلوى .

ـ أنظر إلى قول قيس بن ذريح ، يذكر صاحبته « لبنى » ، وكيف وجد في تكرار ذكرها لذة ومتعة وسلوى :

ألا ليت لبنى لم تكن لى خلة ولم تلقنى لبنى ولم أدرماهيا

« أودى الشباب وسلمى الهم والحزن » هذا التركيب مجاز مرسل مركب لأن المراد منه « التحسر والتألم » والعلاقة اللازمية .

« وسلمى الهم والحزن » أسلوب قصر طريقه تعريف الطرفين ، وهو من قصر الموصوف على الصفة أي : أن سلمى هي نفس الحزن والهم .

والمعنى يقول : إنه أحب سلمى فى زهرة شبابه ، وسرعان ماذهب هذا الشباب ، ولم يبق له من حبه إلا الذكريات التى تجلب عليه الهموم والأحزان.

٣ — حلت بأبـــين فى حى مجاورةً
بينى وبينهـــم الأحقاد والدمن

حلت بأبين « وأبين » امخلاف باليمن منه عدن أو هو موضع فى جبل « عدن » .

حى : بطن من بطون العرب والجمع أحياء ، وهذا المعنى هو المراد هنا، وحى أيضا : ضد الميت . الأحقاد : جمع حقد ، والحقد : إمساك العداوة فى القلب والتربص لفرصتها . والدمن : الحقد القديم أى العداوات الموروثة.

والبيت مفصول عما قبله ؛ لأنه جواب عن سؤال فهم من البيت الأول كأن قائلا : قال له : ولِمَ لم تلحق بها ؟ أجاب : حلت بأبين فى حى ... البيت. وإذا كان البيت جوابا عن سؤال اقتضاه البيت السابق فيكون استئنافا بيانيا، ويكون البيت متصل بالبيت الذى قبله كاتصال الجواب بالسؤال فالواقع أن البيت الثانى متصل بالبيت الأول ولكن البلاغيين يقولون : إنه فصل . نظراً لعدم وجود « الواو » التى « للعطف ، والحقيقة أن البيتين اتصلا بعضهما اتصالا قويا جعلنا نستغنى بهذا الاتصال عن ربطهما بالواو ، وسر بلاغة الاستئناف البيانى : هو بث الروح فى الأسلوب الأدبى ، وجعله حيا موحيا ، فالقارىء أو السامع تجده يتفاعل مع الأديب ، ويستبطن المعنى ، والاستئناف البيانى دليل قوى على ترابط أبيات القصيدة واتصال بعضها ببعض .

« والأحقاد والدمن » أسلوب إطناب طريقه عطف الخاص على العام وسر بلاغته تأكيد المعنى وتقويته.

والمعنى يقول : إن صاحبته قد نزلت بأرض لا يمكنه الوصول إليها ؛ لأن بها قوما بينه وبينهم عدوات وثارات قديمة فيخشى أن يفتكوا به .

٤ ـ واحتل أهلك من صرف النوى بهم
أرضا يحاك بهـــا الكنان والقطن

احتل أهلك : نزل ساكنوك . الصرف : تقلبات الدهر ونوائبه ، لأنه يصرف الأشيا .عن وجوهها ، النوى: التحول من دار إلى دار . يحاك ينسج والمراد يبنى والكنان : جمع كن على غير قياس. والمراد به الحصن، والقطن : جمع قطين ، والمراد به المكان الذى يسكن فيه القوم والخطاب فى قوله : « واحتل أهلك» للمكان ،وهو لا يعقل ، ومخاطبة مالا يعقل من باب الإستعارة بالكناية ، حيث شبه مالا يعقل بمن يعقل ثم حذفه ، ورمز إليه بشيء من لوزامه وهو الخطاب وبلاغة هذه الإستعارة تأتى من جهة أنها تبعث الحياة والروح فى الجماد ، ويحاك : استعارة تبعية حيث شبه البناء بالحياكة بجامع الإحكام فى كل ثم حذف البناء واستعار له الحياكة واشتق من الحياكة يحاك بمعنى يبنى على سبيل الاستعارة التبعية ونكر « أرضا » للتنفير منها ، والمعنى يقول : إنهم من تتابع الأحداث بهم وكثرة حروبهم لاهم لهم إلا إقامة الحصون استعدادا للحرب .

٥ ـ أرضا بها الطعن والطاعون ينكؤهم
كما تنحر فى لباتها البدن

الطعن : الضرب بالرمح ، والطاعون : الوباء ، ونكأ القرحة ـ كمنع: قشرها قبل أن تبرأ فنديت وفى ذلك إيلام شديد ، ونحر البعير ينحره نحرا ، طعنه فى منحره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر ، والنحر فى اللبة مثل الذبح فى الحلق ، والبدن جمع بدنة وهى البقرة التى تهدى إلى بيت الله عز وجل وكرر الشاعر لفظ « أرضا» للتنفير ولإفراغ ما فى نفسه من هذه الأرض التى ذهبت إليها صاحبته .

وبين الطعن والطاعون جناس ناقص ، والطاعون كلمة توحى بمقتضى الحديث الشريف : أن الشاعر لا يمكنه اللحاق بصاحبته لأن الحديث

معناه : أن الطاعون إذا نزل بأرض قوم فلا يخرج منها إنسان ، ولا يذهب إليها أحـــد ، « ينكرهم » كناية عن أن هـذه الديار فى حروب متتالية لايخرج أهلها من حرب حتى يدخلوا حربا أخرى ، واستعمل الشاعر أسلوب التشبيه فى الدلالة على كثرة القتل فى هذه البلاد ـ حيث شبه القتل بالذبح ووجه الشبه القوة والكثرة ، والكاف فى « كما » آداة التشبيه ، وبلاغة التشبيه فى توضيح صورة القتل وتأكيدها .

وضعف الفعل « تنحر » الدلالة على كثرة القتل وشدته .

والمعنى : هذه الأرض التى ذهبت إليها « سلمى » لاتنفك ميدانا لحروب متتالية ومرتعا خصبا للوباء الفتاك ومن ثم لا يمكن للشاعر الوصول إلى سلمى ،

٦ ـ لا نوم إلا عـــلى خوف وزلزلة
فيها ولا مال إلا السيف والبدن

٧ ـ وكل أسمر عراض مهزته
كأنه برجـــا عادية شطن

الزلزلة : التخويف والتحذير . والزلازل : الشدائد والأهوال. والبدن الدرع ، وكل أسمر : معطوف على السيف فى البيت قبله والمراد : الرمح . عراض : مضطرب .

مهزته : هزته ، والرجا الناحية ، وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها ، والعادية : القديمة ، يقصد بئرا عادية أى منسوبة إلى قوم عاد والشطن : الحبل الطويل الشديد الفتل يستقى به وجمعه أشطان .

وفى البيت تشبيه حيث شبه الرمح بالشطن ووجه الشبه الطول فى كل وأسلوب القصر فى قوله : « لانوم إلا على خوف وزلزلة » من قصر

الموصوف على الصفه أى قصر النوم على الخوف قصراً حقيقياً إدعائياً لأن الشاعر يبالغ فيجعل النفى عاما ولكن الواقع بخلاف ذلك ، وكذلك أسلوب القصر فى قوله : « ولامال إلا السيف والبدن » قصر موصوف على صفه قصر المال على السيف والبدن قصراً حقيقاً إدعائياً لأن الشاعر فى مثل هذا المقام لا بد أن يبالغ فيجعل نفيه عاما ولكن الواقع يخالف ذلك وطريق القصر فى المثالين « النفى والاستثناء » .

وبلاغة القصر تأتى من ناحية تأكيده للكلام تأكيدا حاسما مع الإيجاز لأن أسلوب القصر يقوم مقام جملتين الأولى منفية والثانية موجبة والمعنى ، يقول : إن هؤلاء الذين نزلت عندهم صاحبته لانوم لهم ولا راحة إلا على أصوات الحرب وشدائدها ، ولا مال لهم إلا أسلحة الهلاك والدمار شأن الدول التى فى حرب مستمرة .

٨ — فانظر وأنت بصير هل ترى ظعنا
تحـدى بنجد ومن أنى لك الطعن

٩ — وفى الخدور لو أن الدار جامعة
حور أو أنس فى أصواتها غنن

« فانظر » أمر لنفسه بأن ينظر حول هذه الديار التى نزلت بها سلمى ووراء هذا الأمر شعور من الشوق لا هب ، ووله واندفاع . ورغبة عارمة فى رؤية هـذه الصاحبة ، وكأن هذا الشاعر هنا يذهب مع وهمه ويبعد بنفسه عن مواجهة هذا الموقف القاسى ، فهو يعلم أن صاحبته نزلت بهذه الديار ، وهى ديار حرب ، وفى أيام الحرب لا تخرج النساء خوفا عليهن من الوقوع فى الأسر .

ومن أنّى لك الظعن؟ عتاب لهذه الصاحبة التى أضناه حبها ثم هى تفارقه وتبعد عنه بعداً شديداً .

والاستفهام الأول « هل ترى ظعنا؟ » فى مكان النفى . والاستفهام الثانى « ومن أنى لك الظعن ؟ » للاستبعاد ، وبلاغة الاستفهام تأتى من جهة أنه يثير الانتباه ، ويجذب المشاعر ، ويدعو للمشاركة والظعينة : اسم للمرأة وهى فى الهودج ، والظعون : البعير الذى يحمل المرأة . وحدا الإبل تحدى حداء : زجرها وساقها وحثها على المسير . . وجملة « وأنت بصير » إطناب طريقه التذييل أكدت معنى الكلام السابق .

والخدور : جمع خدر وهو بيت المرأة . جامعة : شاملة . حور : جمع حوراء ، وهى الجميلة . أو انس : جمع آنسة ، وجارية آنسة طيبة النفس . وآنسه : ضد أوحشه . والغنة : صوت فيه ترخيم . ولو : حرف إمتناع لامتناع .

والمعنى يقول : انظر ودقق النظر فإنك لا ترى أثراً لمسافرات ولو جمعتنا الديار لرأيت الجميلات فى بيوتهن

حديثه عن نفسه

من ١٠ — ١٣

١٠ — هل للعواذل من ناه فيزجرها
إن العواذل منها الجور واللسن

١١ — اللائحات الفتى فى أمره سفها
وهن بعد ضعيفات القوى وهن

العواذل : جمع عاذل ، والعذل : اللوم أو الملامة . يزجرها : يردعها ويكفها . الجور : الظالم . واللسن : الفصاحة .

والاستفهام فى قوله : « هل للعواذل من ناه ؟ » للاستبعاد ، فهو يستبعد

أن يوجد ناه للعواذل. وجملة : «إن العواذل منها الجور واللسن» استئناف بيانى بث فى الأسلوب الحيوية والنشاط .

الفتى : الشاب القوى الجذل ، والشاب المكتمل-والفتى أسلوب تجريد، جرد الشاعر من نفسه إنساناً يتحدث عنه ، وهذا يبث فى الأسلوب القوة والحياة . فى أمره . فى حاله وشأنه ، ودخول « فى » على أمره ، يفيد أنهن يتدخلن فى الأمور الشخصية .

السفه : خفة الحلم أو الجهل ، وهن : جمع واهنة . أى لا بطش عندها ولا قوة :

والمعنى : إن العواذل لا رادع لهن وهن صنفان : صنف ظالم وصنف جرىء قوى الحجة إنهن يتدخلن فيما خفى من أمر الإنسان وهن لا حول لهن ولا قوة .

١٢ — مهلا أعاذل قد جربت من خلق
أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

١٣ — إذا غلا المجد فى مالى كسرت له
والحمد لا يشترى إلا له ثمن

مهلا : المهل السكينة والرفق ، وأمهله : رفق به ، ويقال : مهلا يارجل، ومهلا يا امرأة بمعنى أمهل . ضننوا :بخلوا ، وضننوا أصلها . ضنوا ولكن الشاعر فك التضعيف .

وأقوام : جمع قوم يفيد المبالغة فى الكرم ، وبين الجود والضن بمعنى البخل مطابقة . والمجد : المراد به العطايا.والمجد مجاز مرسل علاقته المسببية لأن المجده تسبب عن العطايا.والعطايا سبب للمجد . كسرت له : كسر الرجل إذا باع متاعه ثوبا ثوبا . الحمد : الثناء لايشترى : المراد لا يستحق.استعارة

تبعية تصريحية حيث شبه الاستحقاق بالشراء بجامع التملك فى كل واستعار الشراء للاستحقاق واشتق من الشراء لا يشترى بمعنى لا يستحق على سبيل الاستعارة ودخول « إذا » على الجملة يفيد أن ارتفاع ثمن المجد أمر محقق وكائن وجملة « والحمد لا يشترى إلا له ثمن » إطناب طريقه التذييل أكد المعنى السابق عليه وجملة « لا يشترى إلا له ثمن » أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء ، وهو قصر حقيق ادعائى .

والمعنى : يطلب الشاعر من لائمته أن تترفق فإنها قد خبرته فعرفته رجلاً جواداً كريماً حتى لمن يخلوا عليه وهو يجود بالغالى والنفيس فى سبيل كسب قلوب الناس ومودتهم .

إنه رجل يحب الناس جميعاً ، ويحب التعايش معهم ، ولكن لا حظ له فى معايشة قومه للصفات التى سوف يذكرها فى الفكرة الثالثة .

ويعتبر هذا البيت وما قبله إنتقالا حسناً لهجاء أعدائه .

(ج) هجائه لاعدائه

من ١٤ — ٢٢

١٤ — ما بال قوم صديقا ثم ليس لهم
عهـــد وليس لهم دين إذا ائتمنوا

مابال : ماحال . أسلوب استفهام فى مكان التعجب ، وبلاغته إثارة الانتباه وجذب المشاعر وتحريك النفوس والاستعداد لسماع ما يقوله فى هجاء قومه والصديق : معناه أصدقاء .. ثم : للتراخى : تفيد أنهم يمكثون على الصداقة مدة طويلة . ونكر : «قوما» للتحقير . والمعنى : يتعجب الشاعر من حال هؤلاء الناس يمكثون على الصداقة والود مدة طويلة فإذا ما اختبرهم الإنسان وجدهم لا دين لهم ولا أخلاق .

١٥ — إن يسمعوا ريبة طاروا لها فرحا
منى وما سمعوا من صالح دفنوا

الريبة : الشك أو الوقوف فى موقف التهمة . دفنوا : المراد ستروا وأخفوا وأدخل الشاعر « إن » الشرطية على الجملة « إن يسمعوا ريبة طاروا » ليشير بذلك إلى أن وقوع الريبة محتمل أن يكون وألا يكون أى : أن وقوع الريبة منه أمر مشكوك فيه و « طاروا » استعارة تبعية حيث شبه الجرى بالطيران بجامع السرعة فى كل واشتق من الطيران « طاروا » بمعنى جروا مسرعين ، و « دفنوا » أيضاً استعارة تبعية ، شبه الكتم بالدفن بجامع الخفاء فى كل واشتق من « الدفن » دفنوا بمعنى كتموا على سبيل الاستعارة التبعية والاستعارة الأولى « طاروا » بثت الحركة فى الأسلوب و « دفنوا » أشارت إلى الألم والحسرة والحزن الذى يعانيه الشاعر .

والمعنى : أن هؤلاء الأعداء يستمعون أخباره ، فإن بلغهم عنه سيئة أذاعوها فرحين بها ، وإن بلغهم عنه حسنة كتموها مغتمين لها ، وهذا من شدة عداوتهم له .

١٦ — صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به
وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

صم : لا يسمعون ، والتقدير : هم صم فالجملة فيها إيجاز بحذف المبتدأ وقع فى موقعه وأضفى على الأسلوب رونقا وبهاء . أذنوا : استمعوا وبين « صم » و « أذنوا » طباق ، وبين « خيرا » و « سوء » أيضا طباق .

وروى البيت برواية أخرى . « وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا » .
والشاعر استعمل « إذا » ببراعة حيث أدخلها على جملة « إذا سمعوا خيرا

ذكرت به ، فأفاد بأن سماع الخير عنه أمر محقق وكائن ، واستعمل « إن » في جملة « وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا » ، فأفاد بأن سماع السوء عنه محتمل أن يكون وألا يكون .

وهذا يناسب الغرض الذي يرمى إليه الشاعر حيث أنه يمدح نفسه ويهجو أعداءه وقد غفل عن هذا بعض البلغاء فأخطأ في استعمال « إذا » و « إن » ، فقد روى(١) عن عبد الرحمن بن حسان في ذم بعض الولاة من استعماله « إذا » في الموضع الذي كان ينبغي أن تستعمل فيه « إن » ، والعكس بالعكس فقال :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتي
تولى ســـواكم أجرها واصطناعها
أبى لك كسب الحمـــد رأى مقصر
ونفس أضاق الله بالخير باعها
إذا هي حثته على الخـــير مرة
عصاها وإن همت بشر أطاعها

فالأبيات في ذم بعض الولاة ، وهذا يقتضى سلب كل الصفات المحمودة من قريب أو بعيد ، لكن الشاعر أدخل « إذا » التي تستعمل لما هو كائن محقق على جملة : « إذا هي حثته على الخير مرة عصاها » ، فأشعر القارىء أن حث نفس الوالي بالخير أمر محقق وكائن ، وهذا يضعف من قوة الهجاء والذم ، وكذلك أدخل « إن » التي تستعمل فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون على جملة : « وإن همت بشر أطاعها » ، فأفاد أن عزم نفسه بالشر مشكوك فيه ويترجح بين أن يكون وألا يكون ، وواضح أن هذا يضعف من غرض الشاعر الذي يرمى إليه .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٦٢ هامش تحقيق المراغي .

ومعنى بيت قعنب صاحبنا : أنهم لا يسمعون إذا ذكرت بالخير أما إذا ذكرت بالشر فكلهم آذان صاغية .

١٧ — وقد علمت عـــلى أنى أعايشهم
لا نبرح الدهر فيما بيننا إحن
١٨ — ولن يراجع قلبي ودهم أبداً
زكنت من بغضهم مثل الذى زكنوا

أعايشهم : أعاشرهم وأخالطهم . لا نبرح : نظل . والإحنة : الحقد فى الصدر ، والجمع إحن وإحنات . زكنت من فلان كذا : علمت من فلان كذا .

والمعنى : لقد حاولت أن أتعايش مع هؤلاء الأعداء فلم أستطع وظللنا طوال أيامنا فى عداوات ومحن ، ولقد وصلت الحال بيننا إلى حد لا أستطيع العودة إلى محاولة التعايش معهم مرة أخرى .

وهذان البيتان تضمنا سؤال يقول:ولم لم تحاول مرة أخرى ؟ الجواب هو فى البيتين التاليين :

١٩ — مثل العصافير أحلاما ومقـــدرة
لو يوزنون بزف الريش ما وزنوا
٢٠ — جهلا علينا وجبنا عن عـــدوهم
لبئست الخلتان : الجهل والجبن

مثل أداة تشبيه . المشبه ضمير الأعداء . والعصافير مشبه به ووجه الشبه « أحلاما ومقدرة » . زف الريش : خفيف الريش أو ضعيفه ، وبين يوزنون ، وما وزنوا : طباق سلب وبلاغته قوة التسجيل عليهم بأنهم لا وزن لهم ولا كيان . ولا وزن كناية عن عدم القيمة .

جهلا : الجهل : السفه . وهو مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن المراد: الظلم ، والجهل سبب الظلم ، والجبن ضد الشجاعة .

لبئست الخلتان . اللام تدل على القسم وبلاغة أسلوب القسم بث الثقة فى نفس السامع أو القارىء . بئس أسلوب ذم فيه مجاز بالحذف . والخلتان: تثنية خلة ؛ وهى العادة والخصلة وخلة بفتح الخاء ، والجهل والجبن فى آخر البيت الثانى إطناب طريقه التوشيع أكد معنى البيت وقواه ، والتوشيع فى البلاغة أن يؤتى بمثنى وتفسيره . والمعنى إننى لا أحاول العودة إليهم ؛ لأنهم ضعاف العقول ولا وزن لهم ولا قدر ، ومن عادتهم السيئة أنهم يجمعون الجهل علينا بما ذكرنا ، من حالهم معنا والجبن عن أعدائهم لعمرك بئست الخصلتان جهلهم علينا وجبنهم عن أعاديهم .

٢١ — مالى أسكن عن وهب وتشتمنى
ولو شتمت بنى وهب لقد سكنوا
٢٢ — كغارز رأسه لم يدنه أحد
بين القرينين حتى لزه القرن

مالى . أسلوب استفهام فى مكان التعجب . القرينان : بعيران يشد أحدهما إلى الآخر . والحبل الذى يشدان به قران وقرن ، لزه شده ، ويقال للبعيرين إذا قرنا فى قرن واحد قد لزا ، وكذلك وظيفا البعير يلزان فى القيد إذا ضيق وفى البيتين تشبيه تمثيلى المشبه هيئة الشاعر وهو بين أمرين : المدافعة عن قومه والهجوم عليهم والكاف فى قوله (كغارز رأسه) هى أداة التشبيه . والمشبه به هيئة رجل حشر بين جملين وربط معهما فى حبل واحد .

المعنى : يقول الشاعر : إننى فى موقف صعب حساس بين نفسى وبين قومى كرجل حشر نفسه بين جملين وربطا معهما فى حبل واحد فهو لا يستطيع حراكا ولا تصرفا .

التعليق

صور الشاعر « تجربته الشعرية » فى صورة فنية رائعة جاءت أفكارها مرتبة منسجمة ، فهو يتحدث عن « سلمى » وفراقها ؛ ليبرهن أنه فى حاجة لمعايشة قومه ، وقبل هذا هو رجل كريم ، والرجل الكريم يحب الناس جميعا ، ويحب التعايش معهم وخاصة قومه .

يورد الشاعر كل هذا ليحاول إقناع القارىء والسامع والتأثير فيهما .

وأما الألفاظ فقد جاءت عذبة سهلة وموحية مثل كلمة « دفنوا » ، و « طاروا » و « جهلا » .

وعمل الخيال المصور عمله فى توضيح الصورة ، فقد أتى فيها بالتشبيهات والمجازات والكنايات التى وضحناها فى حينها ، وكان موفقا فى جميعها .

واستعمل الشاعر الجمل الطلبية فى مكانها اللائق فساعدته على إبراز مشاعره وإحساساته مثل « فانظر » و « مابال » ، وكذا الجمل الخبرية أدت دورها فى توصيل غرض الشاعر وتوضيحه وتأكيده لدى قرائه ومستمعيه. والقصيدة صورة فنية رائعة تمثل الشعر فى العصر الأموى خير تمثيل .

٢ - قصيدة بشامة بن عمرو(١)

وقالَ بشامة بن عمرو بن هلال :

١ — هجرتَ أمامة هجراً طويلا
وحمّلك النأى عبئاً ثقيلا(١)

في أخرى : نأتك أمامة نأيا طويلا : وحملك الحب وقراً .

٢ — وبُدّلت(٢) منها على نأتها
خيالا يوافي ونيــلا قليلا(٢)

٣ — ونظرة ذى عاق(٢) وامق
إذا ما الركائب جاوزْن ميلا(٣)

العلق والعلاقة : الحب . ويروى : ذى شجن

٤ — وقامت تسائل عن(٤) شأننا
فقلنا لها قــد عزمنا الرّحيلا(٤)

أى على الرحيل ، لحذف ، ولا تعزموا عقدة النكاح(٥)

---

(١) هذه القصيدة رقم ٥ بترتيب ابن الشجرى

(٢) فى المفضليات : وحملت منها .

(٣) فى المفضليات : ونظرة ذى شجن .

(٤) فى المفضليات: أتتنا تسائل مابثنا .. والبث : الحال، وفى المفضليات بعد هذا البيت قوله :
وقلت لها : كنت ، قد تعلمين ، منذ ثوى الركب عنا غفولا(٥)

(٥) سورة البقرة آية ٢٣٥

٥ — فبادرَّها(١) ثمَّ مستعجــــل
من الدمع ينضح خــــداً أسيلا(٦)

٦ — وما كان(٢) أكثرَ ما نولت
من الود إلا صفاحا وقيــــلا(٧)

٧ — فقرَّبت(٣) للرحل عيرانة موثقة عنتريساً دمولا(١٠)

فى أخرى : فلما يئست كسوت العتود ناجية ، العنتريس : الكثيرة اللحم الشديدة

٨ — لها قرد تامك نيــــه تزل الولية عنه زليلا(١٢)

٩ — تطرَّفُ أطراف(٤) عام خصيب
ولم يُشْلِ عبد إليها فصيلا(١٣)

١٠ — فمرت على كشب غدوة
وجازت بجنب أريك أصيلا(١٨)

---

(١) فى المفضليات فبادرتاها بمستعجل

(٢) وفى المفضليات بعد هذا البيت قوله :

وعذرتها أن كل امرىء معد له كل يوم شكولا(٨)
كأن النوى لم تكن أصعبت ولم تأت قوم أديم حلولا(٩)

(٣) فى المفضليات بعد هذا البيت قوله :

مداخــــلة الخلق مضبورة إذا أخذ الحاقفاتُ المقيلا(١١)

(٤) فى المفضليات بعد هذا البيت قوله :

توقر شازرة طــــرفها إذا ما ثنيت إليها الجديلا(١٤)
بعين كعين مُفيض القداح إذا ما أراغ يريد الحويلا(١٥)
وحادّره كنفيها المسيــ ـح تنضح أوبر شثا غليلا(١٦)
وصدر لها مهيع كالخليف تخال بأن عليه شليلا(١٧)

١١ ـ توطأ أغلظ حِزّانه　　كوطء القوىّ العزيز الذليلا(١٩)

الحزيز : الغليظ من الأرض . وجمعه حُزّان .

١٢ ـ إذا أقبلت قلت مذعورة　　من الرّبد تتبع هيقا ذمولا(٢٠)

١٣ ـ وإن(١) أدبرت قلت مشحونة　　أطاعت لها الريح قِلعاً جفولا(٢١)

١٤ ـ تعُز المطى جماع الطريق　　إذا أدلج الركب ليــلا طويلا(٢٥)

١٥ ـ كأن يديها إذا أرقلت　　وقد جرن ثم اهتدين السبيلا(٢٦)

١٦ ـ يدا عائم خر فى غمرة　　فأدركه الموت إلا قليلا(٢٧)

١٧ ـ وخبرت قومى ولم ألقهم　　أجدوا على ذى شويس حلولا(٢٨)

أى جددوا نزولا بهذا المكان .

١٨ ـ فإما هلكت ولم آتهم　　فبلغ أماثل سهم رسولا(٢٩)

أى رسالة . قال كثير :

لقد كذب الواشون ما بحت عنــدهم　　بسرّ ولا أرسلتهم برسول

---

(١) فى المفضليات بعد هذا البيت قوله :

وإن أعرضت راء فيها البصيـ　　ـر مالا يكلفه أن يفيلا(٢٢)

يدا سرحا مائراً ضبعها　　تسوم وتقدُم رجلا زجولا(٢٣)

وعوجا تناطحن تحت المطا　　وتهدى بهن مشاشا كهولا(٢٤)

« إنا رسول رب العالمين » : أى ذوو رسالته

١٩ — بأنْ(١) التى سامكم قومكم
هم جعلوها عليكم دليلا(٣٠)

٢٠ — فلا تهلكوا وبكم مُنَّـةٌ
كفى بالحوادث للمرء غولا(٣٣)

٢١ — هوان الحياة وخزى المما
ت كل أراه طعاما وبيلا(٣١)

٢٢ — فإن لم يكن غير إحداهما
فسيروا إلى الموت سيراً جميلا(٣٢)

٢٣ — وحشوا الحروب إذا أوقدت
رماحا طوالا وخيلا فحولا(٣٤)

---

(١) فى المفضليات بدل هذا البيت قوله :

بأن قومكم خيروا خصلتيـ
ـن كلتاهما جعلوها عدولا(٣٠)

وبعده فى المفضليات قوله :

خزى الحيـاة وحرب الصديق
وكل أراه طعاما وبيـلا(٣١)

وبعده أيضاً .

فإن لم يكن غير إحداهما
فسيروا إلى الموت سيراً جميلا(٣٢)

ولا تقعدوا بكم منـة كفى بالحوادث للمرء غولا(٣٣)

٢٤ — ومن نسج داود ماذية[1]

نرى للقواضب فيها صليلا(٣٥)

(١) فى المفضليات : ومن نسج داود موضونة . . وبعده

فإنكم وعطاء الرهان

إذا جرَّت الحرب جلا جليلا(٣٦)

كثوب ابن بيض وقاهم به

فسد على السالكين السبيلا(٣٧)

١ ـ التعريف بالشاعر

وشاعرنا قد اختلف الناس فى نسبه . فنى المفضليات : هو بشامة ابن الغدير ، والغدير هو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان . شاعر محسن مقدم ، وهو خال زهير بن أبى سلمى . ولد مقعداً ولا ولد له ، وكان مكثراً من المال فلما ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله فى أهل بيته وبنى إخوته ، فأتاه زهير فقال : ياخالاه ، لو قسمت لى من مالك فقال : والله يا بن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجز له،فقال : وما هو ؟ قال شعرى ورثتنيه . وكان أحزم الناس رأيا ، كانت غطفان تستشيره إذا أرادت الغزو(١).

وفى الإكمال هو بشامة بن الغدير ، وهو عمرو بن هلال بن سهم ... شاعر محسن ، وهو خال زهير بن أبى سلمى . وقال أحمد : هو بشامة ابن عمرو بن معاوية بن الغدير بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد ابن ذبيان . وهو من الشعراء الإسلاميين(٢).

٢ ـ القصيدة والمناسبة

وقد قال الشاعر هذه القصيدة يحرض قومه بنى سهم بن مرة على ألا يخذلوا خلفاءهم « الحرقة » بضم ففتح ، وهم بنو حميس بن عامر بن جهينة ، وكانوا خلفاء لبنى سهم ، فلما همت بهم بنو صرمة من غطفان خافوا ألا ينصرهم بنو سهم

---

(١) المفضليات هامش ص ٥٥ ط دار المعارف .

(٢) مختارات ابن الشجرى هامش ص ٥٥ تحقيق البجاوى ط نهضة مصر .

فانصرفوا ، فلحقهم الحصين بن حمام المرى ، فردهم وشد الحلف ، ثم وكده بشامة بهذه القصيدة .

وحميس بالمهملة والتصغير .

٣ - جو النص

شاعرنا سديد القول ، حصيف الرأى ، ذو مكانة مرموقة بين قومه يستشيرونه فى الأمور الخطيرة والمهام الجسيمة وهو يعيش معهم أينما كانوا يخشى عليهم الزلل ، ويحب لهم الرشد والهدى يسمع أن قومه سيقفون موقفاً لا يرضاه لهم ولا تقبله الأخلاق العربية فيتأثر بحالهم ويمتلىء شعوره حرصاً عليهم فيصور لنا هذا كله فى لوحة فنية رائعة ، يبدأها بالحديث عن أمامة وأنه تركها وهجر تلك الديار التى تعيش فيها وتحمل فى سبيل ذلك ما تحمل وكيف لا يتحمل ألم افراق وترك تلك الديار ؟ والأمر أهم من ذلك وأكبر إنه يريد أن يصل إلى قومه ليؤكد الحلف الذى أبرموه بينهم وبين حلفائهم ، إن الالتزام بالعهود والمواثيق هو حياة العربى وشرفه وكرامته ، وشاعرنا حريص على أن يلتزم قومه بهذه الأخلاق العربية الكريمة ، ولذلك سوف يتحمل فى سبيل ذلك أقصى ما يستطيع وسوف يحاول أن يصل إليهم فى أقرب فرصة ممكنة ، إنه سينتقى أقوى وسيلة تصل به إلى قومه ، إنها ناقته القوية التى يحبها ، والتى وصفها فى إقبالها وإدبارها وسيرها وخلقها وخلقها ، وسيصل إلى قومه ويحرضهم على ألا يخذلوا حلفاءهم .

وترى الشاعر قد عرض لنا هذه اللوحة فى صورة حية مقنعة مؤثرة فهو يهتم بالأمر ويترك كل عزيز لديه إنه لا مجال للعواطف الآن .

وتراه يفكر فى الوسيلة التى ينتقل عليها فيخبرنا بأنه اختار أجود وسيلة

يصل بواسطتها إلى قومه إنه يبث الثقة فى نفس القارىء والمستمع ويجعل الأسلوب حياً نابضاً بالحياة .

٤ ـ الأفكار الأساسية

(ا) حديثه عن صاحبته من ١ — ٩ .

(ب) حديثه عن ناقته ووصفه لها من ١٠ — ٢٧ .

(ج) تحريضه لقومه لكى يثبتوا مع حلفائهم من ٢٨ — ٣٧ .

٥ ـ تحليل الأبيات

(ا) حديثه عن صاحبته من ١ — ٩ .

١ ــ هجرت أمامة هجراً طويلا   وحملك النأس عبئاً ثقيلا

وقد روى هذا البيت برواية أخرى ذكرها ابن الشجرى وهى :

نأتك أمامة نأياً طويلا   وحملك الحب وقراً طويلا

والرواية الثانية تجعل أمامة هى التى تقوم بالنأى وهذا يوافق مزاج العربى الذى يذكر دائماً أن المرأة هى التى تعرض وتنأى وتبعد فهو يرى أن فى وصف المرأة بهذه الأوصاف تكريما لها . ومن ثم قد يبدو بالنظرة العجلى أن الرواية الثانية هى المرادة ولكن إذا تعمقنا قليلا فسوف يتبين لنا أن المراد الرواية الأولى وذلك أن الشاعر يريد أن يؤثر فى قرائه ومستمعيه ويريد أن يقول إن هذا الأمر الذى سيذهب إليه من الأهمية بمكان ومن ثم فلا مجال للعواطف فهو يترك حبيبته ويتحمل ألم الحب وأهوال الفراق فى سبيل هذا الأمر العظيم الذى سيقوم به نحو قومه ويلاحظ أن الشاعر قد جرد من نفسه شخصاً وخاطبه فقال هجرت بتاء المخاطب ، وهذا التجريد يبث فى الأسلوب الحيوية والنشاط والتشويق ،

النأى : الفراق والبعد ، والعبء : الثقل والمشقة . والوقر : ثقل السمع ، أو ذهاب السمع كله ، والمعنى يفتتح الشاعر قصيدته بالحديث عن « أمامة » فيذكر أنه بعد عنها بعداً طويلا وتحمل فى سبيل ذلك ما أضناه وآلمه .

٢ — وبدلت(١) منها على نأيها خيالا يوافى ونيلا قليلا
٣ — ونظرة ذى علق وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلا

الخيال : ما وافى فى المنام . والوامق : الشديد المحبة . والركائب : جمع ركوبة ، وهى الناقة تصلح للركوب ، وتنكير « خيالا » لتهويل . والشطر : « إذا ما الركائب جاوزن ميلا » كناية عن شدة الحب . والمعنى يقول : وبدلت منها ـ بعد أن نأت عنك ـ أن ترى خيالها فيزيدك شوقا ، وبدلت أيضا نظرة محب ولهان كلما رأى ما يذكره بحبيبته نظر إليه وتعلق به .

وصف موقف الوداع

٤ — وقامت تسائل(٢) عن شأننا فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا
٥ — وقلت لها كنت قد تعلميـ ن، منذ ثوى الركب، عنا غفولا
٦ — فبادرها(٣) ثم مستجل من الدمع ينضح خداً أسيلا
٧ — وما كان أكثر ما نولت من الود(٤) إلا صفاحا وقيلا
٨ — وعذرتها أن كل امرىء معد له كل يوم شكولا
٩ — كأن النوى لم تكن أصقبت ولم تأت قوم أديم حلولا

---

(١) فى المفضليات وحملت منها
(٢) فى المفضليات . أتتنا تسائل ما بثنا والبث ، الحال
(٣) فى المفضليات ، فبادرتاها .
(٤) فى المفضليات من القول .

البيت الأول له روايتان : الأولى « وقامت تسائل . . . » والثانية : « أتتنا تسائل ... » فعلى الرواية الأولى يكون البيت معطوفا على الذى قبله « بالواو » أما الرواية الثانية فيكون البيت وقع استئنافا بمعنى أنه جواب عن سؤال فهم من البيت الذى قبله تقديره : كيف كانت الحال وتمت الوداع ؟ الجواب أتتنا تسائل .. وبلاغة الاستئناف البيانى تأتى من ناحيتين :

الناحية الأولى : أن أبيات القصيدة متصل بعضها ببعض كاتصال السؤال بالجواب .

الثانية : أن الاستئناف يبث فى الأسلوب الحياة والتشويق . وانظر جمال المحاورة فى الشعر وخفتها فهى قد أقبلت تسأل عن حالهم وبسرعة خاطفة كان الجواب منهم « فقلنا لها : قد عزمنا الرحيلا » مشهد حى نابض يصور لنا هؤلاء القوم وقد شدت انتباههم هذه المرأة فأجابوا جميعا وفى صوت واحد وسرعة خاطفة :

ثوى الركب : أقام الركب ، والركب جماعة المسافرين ، عنا غفولا : أى غافلة ، و « كنت قد تعلمين » الخطاب لها وهذا يدل على قربها منه و « تعلمين » معناه « اعلمى » مضارع فى مكان الأمر يدل على منتهى الأدب والرقة معها ، وهو عتاب لها لإغفالها لهم . بادراتاها : يعنى عينيها ، أضمرهما ولم يجر لهما ذكر ، للتفخيم . الخد الأسيل : السهل اللين الدقيق المستوى . النضح : ماسقط من أعلى إلى أسفل ، الصفاح بكسر الصاد : الإعراض ، وروى : « من القول » وروى أيضا « من الود » فالقول : معناه : الوعد ، وعلى هذا المعنى يكون معنى الصفاح : الإعراض ، ومعنى القيل : الكلام الذى يكون فى الشر ، أما على الرواية التى تقول « من الود » فيكون معنى الصفاح : المصافحة ، ومعنى القيل : الكلام القليل والمعنى لم ينل من ودها إلا كلاما قليلا ومصافحة باليد ، والأسلوب من أساليب القصر طريقه النفى والاستثناء وهو قصر حقيقى ادعائى ، وعذرتها : وعذرها : الشكول :

جمع شكل ، وهو المثل . أى الحوادث التى تعرض للناس فتغير حالهم ، أصقبت : دنت وقاربت ، الأديم : الجلد . وأضافه إلى القوم ، بمعنى أنهم أشراف ملوك لهم قباب الأدم ، وهى لا تكون إلا للملوك والأشراف كناية عن صفة ، حلولا : حالين مقيمين . يعنى أن الزمن يفرق بين الناس لا يعزه شريف .

والمعنى : يصف الشاعر الوداع وكان موقفا مؤثراً فقد جاءت إليهم فى آخر فرصة وقد عقدوا النية على السفر لهذا الأمر العظيم ، فقال لها الشاعر معاتباً إنك كنت عنا غافلة منذ أقام ركبنا فاعلمى بذلك فما كان جوابها إلا أن سقط الدمع من عينيها مدراراً على خدها الجميل السهل المستقيم ، وعذرها وتسليتها أن أحوال الناس رهن بقضاء الله وقدره وأن الزمان يفرق بين الناس لا فرق فى ذلك بين شريف وغيره .

(ب) حديثه عن الناقة

من ١٠ — ٢٧

١٠ — فقربت للرحل عيرانة موثقة عنتريسا ذمولا

عيرانة : السريعة فى نشاط ، الموثقة : المحكمة ، عنتريسا : الشديدة الجريئة ، الذمول : السريعة . والمعنى يصف ناقته التى ركبها وتوجه بها إلى قومه . بالسرعة والنشاط والإحكام والجرأة .

ويحلو لبعض الناس أن يقولوا فى مثل هذا الموضع : أن الشاعر صرف القول عما كان عليه من الغزل إلى ذكر الجد ، فقد ترك أيام الهوى والعبث ، وانصرف إلى الأهم من أمر العشيرة والأهل وتدبير حالهم ودعوتهم إلى الاتحاد والائتلاف فهيأ لسفره ناقة قوية ، ونرى أن حديثه عن المرأة ليس عبثا ولا غزلا كما يقولون ولكنه كشاعر يريد أن يقنع

الناس ويؤثر، فهو يوهمهم بأنه قد ترك دياراً عزيزة عليه فيها راحته وفيها سلواه ولكنه ضحى بكل ذلك من أجل مصلحتهم وراحتهم وأنه أعد للسفر وسيلة قوية تستطيع أن تصل إليهم فى أقرب فرصة ممكنة قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

وقريب من ذلك ما نقوله لأصدقائنا : لقد تركنا أولادنا وهم أفلاذ كبدنا وحدهم واستأجرنا للحضور إليكم سيارة خاصة لكى تصل إلينا إليكم فى أقرب وقت ، ولم نركب وسائل المواصلات العامة كل هذا لبيان عظم مقدار الصديق وأن له مكانا مرموقا فى نفس صاحبه ومن ناحية أخرى محاولة لإرضائه وإقناعه بموقفنا منه .

فإذا جاء شاعرنا وتحدث عن صاحبته وأنه تركها على الرغم من حبه لها وأولى أمر عشيرته أهمية بالغة اقتنعنا بما يقول وأنه جاد من أول الأمر إلى نهايته .

١١ — مداخلة الخلق مضبورة   إذا أخذ الحاقفات المقيلا

مداخلة الخلق : محكمة البنية ، قد أخذ بعضها بعضا . المضبورة : شديدة تركيب العظام ، وقوية اكتناز اللحم . الحاقفات : الظباء تكون فى الأحقاف . والحقف : ما اعوج من الرمل . ومقيلهم : حيث يقلن أنصاف النهار من شدة الحر وهو وقت إعياء الإبل . والمعنى يقول : إنها وقت كلال الإبل وإعيائهن نشيطة قوية لم يتعبها السير ولم يؤثر فيها شدة الحر ووعثاء الطريق .

١٢ — لها قرد تامك نيه   تزل الولية عنه زليلا

قرد : من التقرد ، وهو التجمع ، عنى به السنام ، يريد أنه مكتنز . النى : الشحم . والتامك : المرتفع العالى . تزل : تنزلق . الولية ، بفتح الواو : حلس يكون تحت الرحل يوق الظهر ، وتزل الولية كناية عن صفة والمراد أنها سمينة مكتنزة ، فالولية تزل عنها لملاستها .

١٣ — تطرف(١) أطراف عام خصيب

ولم يشل عبد إليها فصيلا

تطرف: ترعى أطراف المرعى ، أطراف نبات عام خصيب ، إيجاز بالحذف والخصيب : كثير النبات . ولم يشل : أصل الاشلاء : الدعاء أى لم يدع . الفصيل : ولد الناقة . وقوله : «ولم يشل عبد إليها فصيلا» كناية عن صفة يريد أنها عقيم وهذا أصلب لها على السير فى الوهاد والنجاد . والمعنى يقول : إن هذه الناقة لعز صاحبها ومكانته بين الناس ـ ترعى حيث تشاء لا يمنعها أحد .

١٤ — توقر شازرة طرفها

إذا ما ثنيت إليها الجديلا

توقر : تنظر بوقار ورزانة . الشزر ، بالسكون : النظر بمؤخر العين على غير استواء . طرفها : نظرها . الجديل : الزمام والشطر الأول «توقر شازرة طرفها» كناية عن أدبها وانتظارها لصاحبها إذا تركها فهى كناية عن صفة . وبلاغة الكناية تأتى من ناحية أنها تؤكد الكلام فى ذهن السامع . لأنها كما يقول البلاغيون دعوى بدليلها أى أن الشاعر يريد أن يقول إنها مؤدبة تنتظر صاحبها إذا تركها وحدها والدليل على ذلك أنها «توقر شازرة طرفها إذا ثنيت لها الجديلا» يصفها بأنها أدبية ، إذا أثنى لها الزمام لم تنفر لحسن أدبها .

١٥ — بعين كعين مفيض القداح

إذا ما أراغ يريد الحويلا

مفيض القداح : الذى يقلب قداح الميسر ويدفعها ، ليظهر الرابح . أراغ : حاول والتمس . الحويل : الاحتيال يشبه نظر ناقته بنظر صاحب القداح فى وقت محاولاته الاحتيال والمعنى يريد أن يصف ناقته بحدة النظر ، وشدة الحذر .

١٦ — وحادرة كنفيها المسيـ ـح تنضح أوبر ، شثا غليلا

الحادرة الضخمة يريد أذنها . والمسيح : العرق . كنفيها جانبيها أى على جانبى أذنيها العرق . الأوبر يريد به الشعر تحت حنكها . الشث الكثير المتراكب . الغليل الذى انغل بعضه فى بعض وتداخل ، فأذنها تسيل العرق فيصل إلى الشعر الذى تحت حنكها .

١٧ — وصدر لها مهيع كالخليف يخال بأن عليه شليلا

المهيع : الواسع . والخليف : فرجة بين جبلين قليلة العرض ، ومن الطرق أفضلها والشليل : كساء أملس يكون على عجز البعير وفى البيت تشبيهان الأول شبه صدرها بالخليف فى السعة والثانى شبه جلد صدرها وهو يتموج بالكساء يريد أن جلد صدرها يموج من سعته كالكساء الجميل وهذا الوصف مستحب عند العرب فى وصف الابل والخيل لأنه يساعدها على السرعة .

١٨ — فمرت على كشب غدوة
وجازت(١) بجنب أريك أصيلا

كشب . بضمتين ، ويقال بفتح الكاف وكسر الشين ، وأريك : جبلان بالبادية بينهما بعد ومسافة طويلة ، والغدوة : البكرة والأصيل : العشى ، والبيت كناية عن سرعتها ، كناية عن صفه يريد أن يقول : إنها سريعة تسير فى يوم مايسيره غيرها فى أيام .

١٩ — توطأ أغلط حـزانه
كوطء القوى العزيز الذليلا

---

(١) فى المفضليات : وحاذت ، ويقال : حاذيته ، إذا صرت بإزائه .

توطأ : تطأ ، الحزان : ما غلظ من الأرض ، وفى البيت تشبيه شبه سيرها بقوة فيما غلظ من الطريق ، بوطء القوى العزيز ، الذليل ، يريد الشاعر : أن يصف قوتها وسرعتها ونشاطها وأنها من أول السير إلى نهايته تكون قوية ، وفى ذلك مبالغة مقبولة .

٢٠ — إذا أقبلت قلت مذعورة
من الربد(١) تلحق هيقا ذمولا

الربد : جمع ربداء : النعامة لونها إلى الغبرة ، والهيق : الدقيق الطويل وسمى بذلك ذكر النعام ، ذمول : مسرع .

وقد شبهها وهى مقبلة بالنعامة النافرة التى تتبع ظليما ذمولا ، وجعلها مذعورة لأنه أشد لسيرها ، وأدخل « إذا » على الجملة ليفيد أن هذا الوصف لها كائن ومحقق ، والمعنى يقول : إن ناقته فى إقبالها تكون شديدة فى سيرها قوية فى تحركها .

٢١ — وإن أدبرت قلت مشحونة
أطاعت(٢) لها الريح قلعاً جفولا

مشحونة : أى سفينة مملوءة ، أطاع : جعله يطيع ، القلع : الشراع ، الجفول : التى ينجفل ، أى : تسرع .

وفى البيت تشبيه حيث شبه الناقة بسفينة مملوءة ، لأنه أحكم لسيرها

(١) فى المفضليات : من الرمد تلحق ، قال : والرمد : النعام ، وهى الربد أيضا .
(٢) فى المفضليات : أطاع لها الريح .

وأضبط ، و « إن » تدل على أن هذا الإدبار محتمل أن يكون وألا يكون. وعلى فرض حدوثه تكون الناقة متزنة فيه ومعتدلة لا تخرج عن حد اللياقة .

٢٢ - وإن أعرضت راء فيها البصير ما لا يكلفه أن يفيلا

فال رأيه يفيل : إذا أخطأ والمعنى يقول : إن هذا الناقة إذا رآها البصير لم يخطىء فى نجابتها وأصالتها ، وراء : رأى - على القلب .

٢٣ - يداً سرحاً مائراً ضبعها تسوم وتقدم رجلا زجولا

يداً : بدل من مفعول « راء » فى البيت قبله ، السرح : المنسرحة فى سيرها السريعة ، الضبع : بسكون الباء : العضد ، ومائرا : مور الضبع : اختلاجه واضطرابه من سرعة السير ؛ لأنه إذا لان لجاء وذهب كان أطوع وأسهل لانقيادها وإجادة سيرها تسوم : تسير ، الزجول : السريعة والمعنى يصف حركات سيرها ، فيذكر أن يدها تسرع وتتقدم رجلها ، ورجلها تزجل نفسها لتلحق اليد .

٢٤ - وعوجا تناطحن تحت المطا وتهدى بهن مشاسا كهولا

العوج : القوائم ، يريد أضلاعها ، تناطحن : التقين ودخل بعضهن فى بعض ، المطا : الظهر ، تهدى : تدل وتظهر ، المشاس : رءوس العظام ، والكهول : الضخام الطوال ، والمعنى يصف الشاعر جسم ناقته فيقول : إن أضلاعها قوية متداخلة تدل على أن عظامها غليظة .

٢٥ — تعز المطى جماع الطريق
إذا أدلج الركب[١] ليلا طويلا

تعز : تغلب أى تسبق المطى فى السير ، جماع الطريق : جميع الطريق أدلج الركب : أى سار الركب ليلا ، والمعنى يصفها بأنها تسبق جميع المطايا حتى ولو سافر الركب فى الليالى المظلمة ، والتعبير بالمضارع فى قوله « تعز » لتصوير الحدث وكأنه يحدث الآن لا قبل الآن .

وهذا يبث فى الأسلوب الحيوية والنشاط .

٢٦ — كأن يديها إذا أرقلت
وقد جرن ثم اهتدين السبيلا
٢٧ — يدا عائم خر فى غمرة
قد[٢] أدركه الموت إلا قليلا

أرقلت من الإرقال : وهو أن تعدو وتنفض رأسها مرحا ، جرن : أى الإبل سوى ناقته ، أى عدلن عن صلب الطريق يمينا ويسارا ، وذلك فى وقت نشاطهن ومرحهن ، فلما تعبن لزمن الطريق إعياء وكلالا .

وجملة « وقد جرن ثم اهتدين السبيلا » معترضة بين اسم كأن وخبرها الذى هو أول البيت الثانى وهو قوله : (يدا عائم ..) خر : سقط الغمرة : معظم الماء ، وقد شبه يدى ناقته بيدى سابح كاد يغرق فيداه فى هذه اللحظة الحرجة من حياته تكون أسرع يحاول النجاة والمعنى يقول : فى وقت إعياء الإبل وكلالها ولزومها صلب الطريق تكون ناقته سريعة فى مشيها

(١) فى المفضليات : أدلج القوم .. ثم أورد رواية ابن الشجرى .
(٢) فى المفضليات : قد أدركه .. ثم أورد رواية ابن الشجرى .

وتحريك يديها إلى الأمام لتنهب الطريق نهبا مثل يدى عائم كاد يشرف على الغرق فهو يحرك يديه حركات متتالية سريعة لعله يظفر بالنجاة من هذا الغرق الذى يقف له ويترصده .

توكيد الشاعر للحلف

من ٢٨ — ٣٧

٢٨ — وخبرت قومى - ولم ألقهم -
أجــدوا على ذى شويس حلولا

أجدوا : أحدثوا أمراً جديدا فارتحلوا إلى أرض غير أرضهم ، يشير إلى ما كان من رد الحصين بن الحمام المرى لهم بعد انصرافهم .

ذو شويس : مكان حلولا : مقيمين .

وبنى خبرت للمجهول ليشير بأنه قد علم بقوة قادر عظيم هم يعرفونه وأضاف « قوماً » إلى نفسه لإثارة عطفهم .

والمعنى : لقد علم الشاعر بأن قومه قد أقدموا على أمر عظيم فشدوا الحلف بينهم و بين حلفائهم .

٢٩ — فإما هلكت ولم آتهم
فأبلغ أماثل سهم رســولا

سهم : قوم الشاعر ، وأماثلهم : خيارهم ، رسولا : المراد رسالة فاذا لم أستطع أن أصل إليهم فعليك أيها الرسول أن تبلغ أشراف قومى هذه الرسالة التى مضمونها الأبيات التالية :

٣٠ — بأن قومكم خيروا خصلتيـ
ـن كلتاهما جعلوها عــدولا

٣١ ـ خزى الحياة وحرب الصديق
وكل أراه طعاما وبيلا
٣٢ ـ فان لم يكن غير إحداهما
فسيروا إلى الموت سيرا جميلا

عدولا : جورا ، عدلوا فيها عن الحق . خزى الحياة : مايلحقهم من العار إذا خذلوا خلفاءهم الحُرَقة ، حرب الصديق : إذا نصروهم فحاربوا عطفان والصديق يكون واحداً وجمعا ، فى المذكر والمؤنث والوبيل : لايستمرأ ويعقبه الوبال والفساد والموت .

والمعنى يقول : إن قومه بين أمرين لاثالث لهما إماأن يدخلوا الحرب وفيه خسارة لهم لأن الموت يتخطفهم وإما ألا يدخلوا الحرب وفى ذلك خزى لهم وعار عظيم يلحقهم لأنهم بذلك يخذلون خلفاءهم ، فاذا لم يكن إلاالموت أوخزى الحياة .

فالأولى أن يسيروا إلى الموت سيراً جميلا ، أى : يقاتلوا حتى يقتلوا فذلك أجمل بهم وأكرم لهم .

٣٣ ـ ولا تقعدوا وبكم منة
كفى بالحوادث للمرء غولا

المنة : القوة : الغول: ماغال الشىء فذهب به ، والمعنى يقول : لاتقعدوا عن الحرب وبكم قوة لها فان الآجال بيد الله ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد .

٣٤ ـ وحشوا الحروب إذا أوقدت
رماحا طوالا وخيلا فحولا

حشى النار : إيقادها . وإسناد الحش إلى الحرب استعارة بالكناية

والمعنى بعد أن حرضهم على الدخول فى الحرب لأنه أشرف لهم جعل ينصحهم بوجوب استعدادهم لعدوهم كما يستعد لهم ، فيوقدون له كما يوقدلهم

٣٥ — ومن نسج داود ماذية
ترى لقواضب فيها صليلا

نسج داود : يريد الدروع وفى ذلك كناية عن جودتها ؛ الماذية : الدروع السهلة اللينة الصافية الجديدة . والقواضب : السيوف . وأصل القضب : القطع . والصليل : الصوت على الشيء اليابس يريد صوت السيوف عند الضرب ، وعبر عن السماع بالرؤية فقال « ترى » بدلا من « تسمع » توكيدا للمعنى إذ الرؤية أوثق من السمع

والمعنى يقول : أعدوا ما استطعتم من قوة للحرب فانتقوا أجود الأسلحة وأحسنها فإن ذلك يساعدكم فى النصر على أعدائكم ،

٣٦ — فإنكم وعطاء الرهان
إذا جرت الحرب جلا جليلا

٣٧ — كثوب ابن أبيض وقاهم به
فسد على السالكين السبيلا

الجل بفتح الجيم وكسرها : العظيم ، كالجليل ، والمعنى يقول ، قدأعطيتم من أولادكم رهنا وقد اشتدت الحرب فلا مناص لكم من الوقوف صفا واحدا ومن الثبات أمام أعدائكم حتى تنتزعوا النصر ، وكان الحصين بن الحمام المرى رهن ابنه فى تلك الحرب ، فهذا الرهان وأثره عليكم يشبه مافعله ابن بيض إذ ذبح بعيرا على ثنية فسدها فلم يقدر أحد على جوازها ، فضرب المثل ، فقيل : سد ابن بيض السبيل بمعنى الطريق ، قال الأصمعى : وأراد أن يقول كبعير ابن بيض ، فلم يستقم له ، فقال : كثوب .

التعليق

صاغ الشاعر قصيدته فى صورة فنية رائعة ، جاءت معانيها متسقة اتساقا بديعا إذ بدأها بالحديث عن أمامة فصنع لنفسه ولقرائه ومستمعيه جوا شعريا مملوءا بالعواطف والحنين والشوق ، بعيدا عن الحياة الواقعية المادية .

إنه يريد أن يذهب ليوكد الحلف الذى عقده قومه بينهم وبين حلفائهم ولكنه يريد أن يقنع ويؤثر فيتخذ لذلك آداة ماضية تلك الآداة هى حديثه عن العواطف وأنه لأجل هذا الأمر الهام الذى سيقوم به سيقاس وسيتألم كثيرا سيترك « أمامه » ويبعد عن ديارها ، ويتحمل فى سبيل ذلك الألم والحرمان ثم هو لايكتفى بذلك فنراه يضيف شيئا آخر يزيد من ألم الفراق ويلهب شوقه ويزيده فيجعل حيالها يوافيه فى منامه مع أثار النظرة التى انتزعها انتزاعا .

وبعد ذلك نراه يضع أمامنا مشهدا رهيبا هو منظر الوداع إنه وداع رقيق فى مشهد متحرك مع المحاورة القيمة الممتعة الخفيفة فهى تقبل عليهم ساعة الرحيل والقوم على أهبة السفر فيهم نشاط وحركة فتنهات تسألهم عن جالهم يجيب الجمع فى صوت جماعى « قد عزمنا الرحيلا » المسرح كله يتكلم ثم يتقدم أحدهم وهو شاعرنا ليقول لها فى أدب كلماته الرقيقة فى الوداع والعتاب لقد كنت عنا غافلة مدة إقامنا فاعلمى بذلك فتجيبه بدموعها لاشك أن الشاعر استطاع أن يجعل القراء والمستمين والمشاهدين يتأثرون خاصة حينما يرون الدمع ينساب على الحدين يدرارا .

إن هذا المشهد المؤلم نهاية لإقامة الإنسان فى هذا المكان إنه من الضرورى أن يغادره فورا أملافى أن ينسى آلامه وأشواقه إنه يتحث عن

وسيلة مواصلات قوية تنقله فورا من هذا المكان الذى شهد فيه موقف الوداع لأعز محبوب لديه . فى عصرنا الحديث حينما يحس الإنسان بالألم والسأم يذهب بهدوء إلى سيارته فيركبها ويصل بها إلى مكان بعيد يجد فيه راحته وسلواه وهو لايكاد يعرف من أمر سيارته لا قليلا ولا كثيرا فليس بينه وبين السيارة شيئا إلا بقدر مايسهل له مهمته يقدم لها الوقود يصلح العطب يقوم بترميمها أحيانا أو بمعنى آخر ليس بينه وبينها أية عاطفة .

أما العربى إذا ذكر ناقته فإنما يذكر شيئا عزيزا لديه يذكر قطعة من حياته من سعادته وشقائه .

وصاحبنا « بشامة » انتقل إلى ناقته انتقالا سهلا لينا لاتكاف فيه ولامشقه فهو فى موقف الوداع ولابد أن يرتحل ويسافر والسفر لابدله من وسيلة قوية لأن الأمر جد خطير فلا بد أن يدرك القوم قبل أن يخذلوا خلفاءهم .

فأخذ الشاعر ناقته القوية السريعة وتوجه إليهم لعله يصل قبل أن يخونوا الأمانة ولكن الشاعر ليس كمثلنا فى هذه الأيام نركب السيارة ولاندرى من أمرها شيئا ، إنه يعرف من ناقته كل موضع يساعدها على سرعة السير . إن سرعة السير فى وسائل المواصلات هى الصفة البارزة المطلوبة قديما وحديثا ، ولذلك سنجد شاعرنا يبدأ الحديث عن ناقته فيصفها بالسرعة وأنها وقت كلال الإبل وإعيائهن نشيطة لم يكسرها السير .

ثم يذكر مقومات هذه السرعة فيقول عنها إنها مكتنزة اللحم تأكل من أى مكان تشاء لايمنعها أحد ثم هى عقيم :

ومن أجل ذلك فهى صلبة ومستقيمة فى سيرها ثم يستأذننا ليقول لنا : إنها مع سرعتها فى السير وقوتها تجدها أديبة ، إذا رأتنى أثنى لها الجديل لم تنفر لحسن أدبها .

وبعد أن يضع أمامنا هذه الصفة يطلق لنفسه العنان فى وصفها بالأوصاف التى تعود فى النهاية إلى تأكيد سرعتها فى السير ، فجلد صدرها يموج من سعته وهى تقطع المسافة الكبيرة فى وقت قصير وأنها تخترق المصاعب ونقف أمام تشبيهين أوردهما الشاعر لناقته فقد شبهها بالطائر المذعور فى إقبالها وفى إدبارها شبهها بالسفينة ؛ إن الشاعر يريد أن يحلق فى الجو ويعانق الموج إنه لا وقت عنده يريد أن يصل إلى قومه فى أقصى سرعة ؛ فهو لا يشبه ناقته بالأتان الوحشى فى الصحراء لأن الشاعر لا وقت عنده للهو فى وسط الصحراء وبين عبث الحيوانات .

إن الجو العام الذى يسيطر عليه هو « السرعة » حتى أننا لا ننسى أنه تحدث عن « أمامة » حديثا خاطفا .

ثم أسدل الستار على موقف الوداع بسرعة فائقة ثم تراه قد وقف أمام ناقته ووصفها بالسرعة طويلا فوصف يديها وقدميها وهى تلعب بهن بمهارة فائقة حتى تقدمت جميع الإبل التى معها فى الطريق .

وهنا يصل الشاعر إلى غرضه الأصلى وصولا معنويا وماديا واقعيا فهو قد أغنى القارىء والسامع عن مثل هذه الأسئلة التى تتوارد على الذهن كيف وصل ؟ وعلى أى شىء وصل ؟ وكيف كان حاله فى الشعن ؟

ثم تراه يتحدث مع قومه حديثا عليا منطقيا خلاصته أنه إذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا ، ثم يوصيهم بالاستعداد للحرب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ثم يختم حديثه لهم بمثل ما بدأه وهو أنهم لا مناص لهم من الحرب .

فهذه معانى القصيدة عرضناها عليك فهل تجد معنى منها نابيا أو قلقا فى غير موضعه إنك لا تستطيع أن تقدم ولا تأخر بل سوف تجد نفسك مشدودا لكى تحافظ على ترتيب هذه القصيدة كما وضعها صاحبها .

أما ألفاظ القصيدة فسهلة لينة عذبة لا تكلف فيها ولا معاناه، تتسم بالجزالة والعذوبة .

وعمل الخيال المصور عمله فى توضيح هذه اللوحة الفنية فقد أورد الشاعر فيهامن الكنايات والمبالغات والتشبيهات والاستعارات التى وضحناها فى حينها وكان موفقا فى جميعا .

واستعمل الجمل الإنشائية فى مكانها اللائق فأدت دورها كاملا وأضفت على الأسلوب رونقا وبهاء .

(٣)

قصيدة كعب بن سعد الغنوى[1]

وقال كعب بن سعد الغنوى ، يرثى أخاه :

١ — تقول سيمى ما لجسمك شاحبا
كأنك يحميك الشراب طبيب (١)

٢ — فقلت ولم أعى الجوات ولم أرلح
والدهر فى صم السلام نضيب (٢)

يقال : ألاح من الشيء : إذا : أشفق منه : قال عبد الله بن عتبة ابن مسعود :

لعمرى لئين شطب بعثمة دارها
لقد كنت من وشك الفراق أليح
أروح بهم ثم أعدو بمثلة ويحسب أنى فى الثياب صحيح

والسلام : الحجارة ، واحدها سلمة :

٣ — تتابع[2] أحداث تخر من إخوتى
وشيبن رأسى والخطوب تشيب (٣)

يقال : تخرمته المنون : إذا ذهبت به .

---

(١) هذه القصيدة رقم ٨ فى «مختارات ابن الشجرى» .
(٢) فى الأصمعيات بعد هذا البيت قوله :
أتى دون حلو العيش حتى أمره
نكوب على آثارهن نكوب (٤)

٤ — لعمرى لئن كانت أصابت منية
أخى والمنـــايا للرجال شعوب(٥)

شعوب : اسم من أسماء المنية ، يقال شعبتهم شعوب : فرقتهم .
وشعوب ـ فى الأصل : نعت ، ثم سمى به ، وهو فى البيت نكرة .

٥ — لقد عجمت منى المنية ماجدا
عروفا لريب الدهر حين يريب(٦)

عجمت : عضت ، عجمت العود أعجمه ، ويقال : رابنى يريبنى ريبا ، وهو الأكثر ، وبعضهم يقول : أرابنى إرابة وينشد قول الهذلى(١) :

كأنما أربتـــه بريب

٦ — فتى الحرب إن حاربت كان سمامها
وفى السلم مفضال اليدين وهوب(٧)

السمام : جمع سم ، وإن كان قولهم سموم أكثر على ألسنة الناس ، وهو مما اتفق فيه فعول ، وفعال .

٧ — جموع خلال الخير من كل جانب
إذا جاء(٢) جياء بهن ذهوب(٨)

فعول وفعال يأتيان للمبالغة ، كقولك : ضروب وضراب . وحدث محمد بن يزيد عن أبى محلم قال : أنشدت يونس أبياتا من رجز فكتبهن على ذراعه ثم لى : إنك لجياء بالخير .

---

(١) الهذلى هو خالد بن زهير . وهذا عجز بيت صدره :

يشم عطفى ويمس ثوبى

(٢) فى الجمهرة : إذا حل مكروه بهن ذهوب .

٨ — فتى لايبالى أن يكون بجسمه
إذا نال خلات الكرام شحوب(٩)

٩ — فلو كان ميت يفتدى لفديته
بما لم تكن عنه النفوس تطيب(١٠)

١٠ — فان تكن[1] الأيام أحسن مرة
إلى فقد عادت لهن ذنوب(١١)

١١ — أخ كان[2] يكفينى وكان يعيننى
على نائبات الدهر حين تنوب(١٣)

١٢ — عظيم رماد القدر رحب فناؤه
إلى سند لم تحتجبه غيوب(١٤)

سند الجبل : ما ارتفع عن الوادى وسفل عن الجبل ، والمعنى أنه يكون حيث يراه الناس إذا طلب لم تحتجبه غيوب .

والغيب : البطن المنخفض من الأرض .

وروى الأخفش : تحتجنه ـ بالنون : أى تغيبه .

والأول من الحجاب

١٣ — إذا ما تراآه الرجال تحفظوا
فلن تنطق[3] العوراء وهو قريب(١٥)

---

(١) فى جمهرة أشعار العرب يبدأ حديثه عن أخيه بهذا البيت :
لقد كان أما حلمه فروح
علينا وأما جهله فعزيب(١٢)
وهذا البيت ليس موجودا فى ابن الشجرى .

(٢) فى جمهرة أشعار العرب أخى كان .

(٣) فى الجمهرة : فلم ينطقوا ، وفى الأصمعيات : فلم تنطق .

١٤ - أخى ما أخى لا فاحش عند بيته
ولا ورع عند اللقاء هيوب(١٦)

١٥ - حليف الندى يدعو الندى فيجيبه
سريعاً ويدعوه النـدى فيجيب(١٧)

١٦ - هو العسل(١) المـاذى لينا وشيمة
وليث إذا يلق العدو غضوب(١٩)

الماذى : أجود العسل وأصفاه

١٧ - هوت(٢) أمه مايبعث الصبح غاديا
وماذا يرد الليل حين يثوب(٢٠)

١٨ - كعالية الرمح الردينى لم يكن
إذا ابتدر الخير الرجال يخيب(٢٢)

كعالية الرمح : يريد كالرمح طولا ، كما قال : الواطئين على صدور نعالهم .

١٩ - أخو شتوات يعلم الحى أنه
سيكثر مافى قدره ويطيب(٢٣)

---

(١) فى الجمهرة قبل هذا البيت قوله :

حليم إذا ماسـورة الجهل أطلقت
حبى الشيب للنفس اللجوج غلوب(١٨)

(٢) فى الجمهرة بعد هذا البيت قوله :

هـوت أمه ماذا تضمن قبره
من المجد والمعروف حين ينوب(٢١)

٢٠ - ليبكك(١) عان لم يجد من يعينه
وطاوى الحشاناني المزار غريب(٢٨)

٢١ - كأن أباالمغوار لم يوف مرقبا إذا ربأ القوم الكرام رقيب(٢٩)

المرقب : المكان العالى . والربيئة : الطليعة ، وهو الديدبان والرقيب.

٢٢ - ولم يدع فتيانا كراما لميسر إذااشتد من ريح الشتاء هبوب(٣٠)

٢٣ - يبيت الندى ياأم عمرو ضجيعه
إذا لم يكن فى المنقيات حلوب(٣١)

٢٤ - إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم
كفى ذاك وضاح الجبين أريب(٣٢)

٢٥ - وداع دعا يامن يجيب إلى الندى
فلم يستجبه عند ذاك مجيب(٣٣)

٢٦ - فقلت ادع وارفع الصوت دعوة
لعل أبا المغوار منك قريب(٣٤)

٢٧ - يجبك(٢) كما قد كان يفعل إنه
نجيب ، لأبواب العلاء طلوب(٣٥)

---

(١) فى الجمهرة هذه الأبيات :

إذا حل لم يقص المحلة بيته ولكنه بحيث حل شتنوب(٢٤)
تروح تزهاه صبا مستطيفة بكل ذرأ والمستراد جديب(٢٥)
إذا قصرت أيدى الرجال عن العلا تناول أقصى المكرمات شبيب(٢٦)
مفيد ملق الفائدات معود لفعل الندى والمكرمات كسوب(٢٧)

(٢) فى الجمهرة بعد هذا البيت قوله :

أتاك سريعا واستجاب إلى الندا كذلك قبل اليوم كان يجيب(٣٦)
كأن لم يكن يدعو السوابح مرة بذى لجب تحت الرماح مهيب(٣٧)

٢٨ ـ وإنى لباكيه وإنى لصادق عليه وبعض القائلين كذوب(١٥)
٢٩ ـ فتى(١) أريحى كان يهتز للندى
كما أهتز ماضى الشفرتين قضيب(٣٨)

تمت القصيدة كما فى مختارات ابن الشجرة :

والزيادة التى فى الهامش من جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام لأبى زيد القرشى .

---

(١) فى الجمهرة هذه الأبيات :

على خير ماكان الرجال خلاله وماالخير إلا طعمة ونصيب(٣٩)
غياث لعان لم يجد من يعينه ومختبط يغشى الدخان غريب(٤٠)
حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب(٤١)
معنى إذا عادى الرجال عداوة بعيد إذا عادى الرجال قريب(٤٢)
غنينا بخير حقبة ثم جلحت علينا التى كل الأنام تصيب(٤٣)
فأبقت قليلا ذاهبا وتجهزت لآخر والراجى الحياة كذوب(٤٤)
وأعلم أن الباقى الحى منهما إلى أجل أقصى مداه قريب(٤٥)
لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى على يومه علق على حبيب(٤٦)

(العلق : النفيس ـ يعنى أخاه)

جمعن النوى حتى إذا اجتمع الهوى
صدعن العصا حتى القناة شعوب(٤٧)
فإن غاب منهم غائب أو تخاذلوا
كفى ذاك منهم والجناب خصيب(٤٨)
كأن أبا المغوار ذا الجد لم تجب به البيد عنس بالفلاة جنوب(٤٩)
علاة ترى فيها إذا حط رحلها ندوبا على آثارهن ندوب(٥٠)
وحدثتمانى أنما الموت فى القرى
فكيف وهذا روضة وقليب(٥٢)

. . . .

وماء سماء كان غير محمـــة بداوية تجرى عليه جنوب(٥٣)

ومنزلة فى دار صـــدق وغبطة

وما اقتال من حكم على طبيب(٥٤)

بعينى أويمنى يدى وقيـــل لى هو الغانم الجذلان حين يؤوب(٥٥)

لعمر كما إن البعيد لما مضى وإن الذى يأتى غداً لقريب(٥٦)

وإنى و تأميلى لقـــاء مؤمل وقد شعبته عن لقاى شعوب(٥٧)

كداعى هديل لايزال مكلفا وليس له حتى الممات مجيب(٥٨)

سعى كل ذكر جاءنا من مؤمل

على النأى زحاف السحاب سكوب(٥٩)

التعريف بالشاعر

وشاعرنا هو كعب بن سعد بن عمرو بن عقبة (أو علقمة) بن عوف بن رفاعة الغنوى، أحد بنى سالم بن عبيد بن سعد: قال البكرى هو شاعر إسلامى، ويقال له «كعب الأمثال» لكثرة مافى شعره من الأمثال(١).

٢ — القصيدة والمناسبة

هذه القصيدة فى فن الرثاء قالها كعب بن سعد بن الغنوى فى رثاء أخيه أبى المغوار.

روى المرزبانى فى موشحه أن أباحاتم سأل الأصمعى عن شاعرنا فقال(٢) ليس من الفحول إلا فى المرثية(٣)، فإنه ليس فى الدنيا مثلها وقال أبوهلال العسكرى: «قالوا: ليس للعرب مرثية أجود من قصيدة كعب بن سعد الغنوى التى يرثى فيها أخاه أبا المغوار».

٣ — الأفكار الأساسية

يمكن تقسيم الأبيات إلى الأفكار الرئيسية الآتية:

(ا) محاورة بين الشاعر وبين سليمى.

(ب) فضائل أبى المغوار.

(ج) حكمه وتجاربه للحياة.

---

(١) أنظر الخزانة ٢: ٦٣١، والأمالى ١٤٧ - ١٤٨

(٢) الموشح ص ١٢٠ تحقيق البجاوى ط نهضة مصر

(٣) المرثية: يقصد القصيدة التى نشرحها.

٤ — جو النص

يبدأ الشاعر رثاءه لأخيه بحوار بينه وبين «سلمى» إذا أنكرت شحوبه كأن لم تدر مافعله به الدهر من موت أخيه الذى كان يعينه على النائبات ، وكان كريماً يجمع خلال الخير .

ثم يستطرد فيصف أخاه بالعفة والشجاعة والحلم والكرم ، وأنه جميل أديب يحب الناس جميعاً ويحبونه ، وهو رجل حرب يخوض الحروب غير هياب ولا وجل ، كما تمنى أن لو استطاع فداءه لفداه . ولكن لامفر من الموت ولا رد لقضاء الله .

٥ — تحليل الأبيات

(ا) محاورة .

١ — تقول سليمى مالجسمك شاحباً
كأنك يحميك الطعام طبيب

٢ — فقلت ولم أعى الجواب ولم ألح
وللدهر فى صم السلام نصيب

٣ — تتابع أحداث تخر من إخوتى
وشيبن رأسى والخطوب تشيب

٤ — أتى دون حلو العيش حتى أمره
نكوب على آثارهن نكوب

شاحباً : متغيراً ضامراً ، لعارض من مرض أو سفر ونحوهما .

يحميك : يمنعك ، أعى : يقال : عييت بالأمر وعييته يتعدى بالحرف وبنفسه ، لم ألح : لم أحاذر ، السلام بكسر السين : الحجارة الصلبة . والصم : الصلاب الشداد ، تخر من : اقتطعن واستأصلن . وتخرمته المنية ذهبت

به ، والخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ، وهو هنا الأمر العظيم
نكوب : جمع نكب بمعنى المصيبة ، ونكبه الدهر نكباً ونكباً بلغ منه
أو أصابه بنكبة .

يعرض الشاعر هذه الفكرة فى صورة جوار بينه وبين (سليمى)
وجاء بالفعل المضارع (تقول) فى أول الفكرة ليصورها أتم تصوير
وكأنها تحدث الآن لاقبل الآن .

وتصغير « سليمى » ينم عن صلة الحنـــان والشفقة التى بين الشاعر
و « سليمى » .

وعرض الصورة على شكل حوار يثير فى السامع عوامل الانتباه واليقظة
ويجدد نشاطه لتقبل المعنى ، إذ يبث فى الكلام الحيوية والحركة ، ويزيد
من الاقناع والتأثر به ، وهذا الحوار الذى بدأت به القصيدة يعتبر فى نظر
البلاغيين من براعة الإستهلال ، و « كأن » هنا تدل على الظن وليست أداة
تشبيه ، لأن خبرها مشتق .

وترى الشاعر فى البيت الثانى : فقلت ولم أعى الجواب . . . .

يمهد للجواب فيورد كنايتين وضحتا نفسية الشاعر وأساه أجمل توضيح ،
إذ قرر فى الشطر الأول « فقلت ولم أعى الجواب ولم ألح » أن الجواب
كان ظاهراً وفى هذا كناية عن ظهور حزنه وأساه وفى الشطر الثانى « وللدهر
فى صم السلام نصيب » كناية عن قوته و « شيبن رأسى » مجاز عقلى وجملة
« والخطوب تشيب » إطناب أكد المعنى السابق طريقه التذييل .

والبيت الرابع تأكيد لمعنى البيت الثالث ولذلك جاء غير معطوف
بالواو ، لأن معنى البيتين واحداً فلا حاجة إلى العطف بالواو .

ونلاحظ جمال الطباق بين « حلو » و « أمره » .

والمعنى يجيب الشاعر « سليمى » حين سألته متعجبة من سبب شحوب

جسمه ، بأن سبب ذلك هو أن إخوته قد ذهب بهم المنون وأصبحت حياته بعدهم بائسة لاسعادة فيها ولا استقرار .

(ب) فضائل أبي المغوار .

١ – وصفه بالدراية والخبرة بالأمور وشجاعته وكرمه وفضله .

٥ – لعمري لئن كانت أصابت منية
أخي والمنايا للرجال شعوب

٦ – لقد عجمت مني المنية ماجداً
عروفاً لريب الدهر حين يريب

٧ – فتى الحرب إن حاربت كان سمامها
وفي السلم مفضال اليدين وهوب

٨ – جموع خلال الخير من كل جانب
إذا جاء جياء بهن ذهوب

٩ – فتى لا يبالي أن يكون بجسمه
إذا نال خلات الكرام شحوب

١٠ – فلو كان ميت يفتدى لفديته
بما لم تكن عنه النفوس تطيب

١١ فإن تكن الأيام أحسن مرة إلى فقد عادت لهن ذنوب

المنية : الموت ، شعوب : مفرقة ، وهو وصف مبالغة من « الشعب » بفتح الشين ، بمعنى التفريق ، عجمت : عضت ، وعجمت العود أعجمه عجما : إذا عضضته لتسبر صلابته من رخاوته ، وعروفاً : صبوراً . ريب الدهر : صروفه وأحداثه ، سمامها ، السمام : جمع سم . خلال : جمع خلة وهي الخصلة بفتح الخاء فيهما ، و « جموع » ، و « جياء » ، و « ذهوب » صيغ

مبالغة ، خلات : جمع خلة بفتح الخاء وهى الخصلة ، الشحوب : تغير الجسم ذنوب : جمع ذنب وهو الاثم .

ونرى الشاعر الحزين على فقد أخيه يستخدم أسلوب القسم « لعمرى... » ليبث الثقة فى نفس السامع ، ولفظ « عمرى » يتلاءم مع جو القصيدة إذ أنها بكاء على عمر أخيه الذى انتهى (و « عجمت منى المنية ماجداً » أسلوب تجريد حيث جرد من نفسه إنسانا ماجداً سبرت المنية صلابته من رخاوته) .

« فتى الحرب » إيجاز بالحذف ، إذ التقدير هو فتى الحرب ، و « إن حاربت » أدخل « إن » على حاربت التى تدل على أن الحرب محتملة أن تكون وألا تكون وذلك ليومىء إلى أن أخاه كان قويا شجاعا يهابه الناس ويخافون صولته فنادراً ماتحدث الحرب وإذا حدثت كان سمها .

وجملة « كان سمامها » تشبيه بليغ والتقدير كان كالسم لها .

ومفضال اليدين : كناية عن كرمه ، وبين ـ الحرب والسلم طباق لطيف أكد المعنى وقواه حيث ذكر الشىء وضده ، وفـــتى الحرب كناية عن شجاعته .

قوله : « جموع خلال الخير » فيه إيجاز بالحذف والتقدير هو جموع و « فتى لايبالى) إيجاز بحذف المبتدأ وهذا الإيجاز كله أعطى للكلام رونقاً وبهاء أفضل وأجمل من قولنا : هو فتى أوهو جموع وقال : « إذا نال خلات الكرام » فاستعمل « إذا » ليفيد أن نوال صفات الكرام أمر محقق لانزاع فيه .

« فإن تكن الأيام أحسن مرة » فى هذا الأسلوب مجاز عقلى علاقته الزمانية ، حيث أسند الإحسان إلى الأيام والمعنى : يقسم الشاعر على أن الكارثة التى نزلت به ففرقت بينه وبين أخيه قد امتحنته فوجدت منه رجلا

صبوراً على حوادث الدهر ونوائبه على الرغم من فداحة المصيبة وخطرها، لقد أخذت المنية منه رجل الحرب الذى يعتمد عليه فى غمرات الحروب، والرجل الكريم الذى ينفق أمواله لطالبى فضله ؛ إذا ما قحطت الأرض وأجدبت السماء، لقد كان أخوه يجمع خلال الخير وكان رحمة للمحتاجين وسنداً للضعفاء والمساكين، وكان فى سبيل ذلك لا يبالى بما يصيبه فى سبيل القيام بواجبه، فلو جرت سنة الله بأن الميت يفتدى لفديناه بأغلى ماعندنا وبكل مانملك من متاع الدنيا ولكن لامفر من قضاء الله حيث جعل لكل أجل كتاب، وهكذا الدنيا الفانية إن أحسنت إلى الإنسان مرة، فإنها لابد أن تسقيه من كأس إساءتها، «وتلك الأيام نداولها بين الناس».

٢ — وصفه بالحلم والكرم والشجاعة والطول والمعروف والجد.

١٢ — لقد كان أما حلمه فروح
علينا وأما جهله فعذيب

١٣ — أخ كان يكفينى وكان يعيننى
على نائبات الدهر حين تنوب

١٤ — عظيم رماد القدر رحب فناؤه
إلى سند لم تحتجبه غيوب

١٥ — إذا ماتراه الرجال تحفظوا
فلن تنطق العوراء وهو قريب

١٦ — آخى ماأخى ! لافاحش عند بيته
ولا ورع عند اللقاء هيوب

١٧ — حليف الندى يدعو الندى فيجيبه
سريعا ، ويدعوه الندى فيجيب

١٨ — حليم إذا ماسورة الجهل أطلقت
حبى الشيب للنفس اللجوج غلوب

١٩ ـ هو العسل الماذى ليناً وشيمة ... وليث إذا يلقى العدو غضوب

٢٠ ـ هوت أمه مايبعث الصبح غاديا ... وماذا يرد الليـــل حين يثوب

٢١ ـ هوت أمـــه ماذا تضمن قبره ... من الجد والمعروف حين يثوب

٢٢ ـ كعالية الرمح الرديني لم يكن ... إذا ابتدر الخير الرجال يخيب

٢٣ ـ أخو شتوات يعلم الحى أنه ... سيكثر ما فى قـــدره ويطيب

٢٤ ـ إذا حل لم يقص المحلة بيته ... ولـكنه بحيث حـــل تنوب

٢٥ ـ تروح تزهاه صباً مستطيفة ... بـــكل ذراً والمستراد جديب

٢٦ ـ إذا قصرت أيدى الرجال عن العـــلا ... تنـــاول أقصى المكرمات شبيب

٢٧ ـ مفيـد ملقى الفائدات معود ... لفعل الندى والمكرمات كسوب

٢٨ ـ ليبـكك عان لم يجد من يعينه ... وطاوى الحشا نائى المزار غريب

مروح : من الرواح أي يأوى إليه ـ وغريب : أي بعيد . نائبات الدهر إحوادثه ونوائبه . تنوب : تنزل . سندالجبل : ماارتفع عن الوادى وسفل عن الجبل ، والغيب : البطن المنخفض من الأرض ، تحفظوا :

تـكلموا بحذر « العوراء : الـكلمة القبيحة الزائغة عن الرشد . ترآه : تصدوا ليراهم . الفاحش : البخيل جدا . والورع : الجبان والهيوب : الشديد الخوف . والندى : الكرم ، وحليف الندى : أي بينه وبين الـكرم حلف وعهد. سورة الجهل : حدته . الحبى جمع حبوة ، اثوب الذى يحتبى به . وإنما خص حبى الشيب لأنهم أكثر وقارا . اللجوج : المتمادية ـ تقال للذكر والأنثى . الماذى : أجود العسل وأصفاه . والشيمة : الطبيعة .

هوت أمه : أي هلـكت ، كأنها انحدرت إلى الهاوية ، وليس بالمراد الدعاء بذلك ، بل المراد التعجب والمدح . كما تقول · قاتله الله ما أفصحه . غاديا : أي أى شيء يبعث الصبح منه حين يغدو إلى الحرب . ينوب أي حين ينزل ماينزل من الحوادث ،

شتوات : المراد بها المجاعات والشدائد ، لأنها أكثر ماتكون عندهم فى الشتاء والشتوات : السنون المجدبة مفردها شتوة بمعنى الشتاء ،

والرديني : نسبة إلى ردينة ، امرأة سمهر ، الذى تنسب إليه الرماح السمهرية ، وكانا يقومان الرماح بخط هجر . وابتدر : أستبق لم يقص المحلة بيته : أى لم يبعد بيته عن المحلة . وتنوب : أى تنوب النوائب . تروح سار فى الرواح . وهو من لدن زوال الشمس إلى الليل .

والفاعل ضمير يعود على كل من يقصد أبا المغوار . تزهاه : تسوقه وتدفعه . الصبا : ريح تهب من المشرق . مستطيفة : مطيفة ، واستطاف وأطاف بمعنى واحد . الذرا بفتح الذال : كل ما استتر به ، يقال : « أنا فى ذرا فلان » أى فى كنفه وستره . يريد أن الصبا تستطيف بكل ما يلجأ إليه . المستراد : موضع الإرتياد للكلأ . جديب : قاحل . مفيد أى مستفيد الفائدات . ملقى الفائدات : يفيد غيره من هذا المال . عان : أسير : وطاوى الحشا : الجائع . والنائى : البعيد .

١٢ ـ ونرى الشاعر قد استعمل الأساليب البلاغية واستعان بها على تحقيق غرضه فاستعمل « الجهل » فى معنى « الظلم » على سبيل المجاز المرسل والعلاقة السببية ، لأن الجهل سبب الظلم وفى هذا بلاغة لبيان الشىء ببيان سببه

ويمكن أن يكون فى البيت مقابله بين « حلمه فروح » وبين (أماجهله فعزيب فى فالحلم يقابل الجهل والمروح يقابل العزيب .

١٣ ـ « أخ » نكرها الشاعر للتعظيم ، ونائبات الدهر ، مجاز عقلى علاقته الزمانية ونائبات وتنوب بينهما جناس ناقص .

١٤ ـ « عظيم رماد القدر » كناية عن كرمه و « رحب فناؤه » كناية عن كثرة رواده « إلى سند لم تحتجبه عيون » كناية عن حلوله الروابى وبروزه

للناس وبلاغة الكناية تأتى من ناحية أنها دعوى بدليلها أى أنه كريم والدليل على ذلك أنه عظيم رماد القدر فهو يطبخ كثيراً : لأن ضيوفه كثيرة ومن كانت ضيوفه كثيرة فهو كريم .

١٥ ـ البيت كله كناية عن مكانته بين قومه وأخلاقه العالية التى يتحلى بها

١٦ ـ « أخى ما أخى » أسلوب للتهويل من شأن أخيه وذلك ليصح له أن يصفه بالأوصاف التى وصفه بها و « ما أخى » أسلوب استفهام استعمل فى غير مكانه للتهويل .

١٧ ـ « حليف الندى » كناية عن نسبة ، ودعوته للندى وإجابة الندى له ودعوة الندى له وإجابته للندى كل هذا من قبيل التجسيم للمعنويات أو كما يقول البلاغيون إستعارة بالكناية .

١٨ ـ « حليم » « هو حليم » مجاز بالحذف أى حذف المبتدأ والبيت تشبيه ضمنى حيث شبه الحلم وقد زين صاحبه بشعيرات الشيب وقد أضفت وقارا ورونقاً على صاحبها .

١٩ ـ (هو العسل) تشبيه شبه أخاه بالعسل الماذى ـ هو كالعسل ـ ووجه الشبه ليناً وشيمة . « وليث » تشبيه ثان حيث شبهه بالأسد حينما يلتقى بالأعداء .

٢٠ ـ هوت أمه : أسلوب خبرى استعمل فى إنشاء المدح والتعجب ، وأمه : استعارة أصلية تصريحية حيث شبه أصله بالأم باعتبار أن الأم أصل لإبنها حذف الأصل وأقيم الأم مكانه على سبيل الإستعارة وقوله: (ما يبعث الصبح غادياً) أى أى شىء يبعث الصبح حين كان يغدو إلى الحرب ، أسلوب استفهام خرج من معناه الأصلى إلى التعجب والمعنى أن الصباح يكون مباركا وجميلا وحيا أيضاً بخروج هذا المرثى إلى الحرب .

وقوله : « وماذا يرد الليل حين يثوب » وأى شىء يمنع الليل من مشاركة الصبح فى البهجة والفرحة بهذا المرثى يوم كان يخرج إلى الحرب ويعود منتصراً إن مظاهر الكون تشاركه فى فرحته ونصره . والاستفهام خرج عن معناه الحقيقى إلى التعجب كسابقه . وفى البيت مقابلة لطيفة بين الصبح وغاديا من ناحية والليل ويثوب من ناحية أخرى .

٢١ - « ماذا تضمن قبره من المجد والمعروف » كناية عن نسبة حيث جعل المجد والمعروف فى قبره فنسبهم إليه ، وأسلوب الاستفهام فى معنى التعجب.

٢٢ - كمالية الرمح . هو كالرمح طولا . وكان إذا تسابق الرجال على الخير لم يخب بل يبزهم جميعاً .

٢٣ - أخو شتوات : كناية عن صفة وهى كرمه العظيم .

٢٤ - إذا حل لم يقص المحلة بيته ، كناية عن كرمه .

٢٥ - البيت كله كناية عن كرمه وكناية عن الراحة النفسية التى يحس بها طالب المعروف .

٢٦ - أيدى الرجال مجاز مرسل علاقته السببية لأن الأيدى سبب القوة والبيت كله كناية عن فضله ومكانته بين الناس :

٢٨ - « ليبكك » خطاب للقريب كأن المرثى مازال ماثلا أمام الشاعر وفى هذا دليل على أنه فى قلبه لا يبرح .

والمعنى : إن المرثى لما يتمتع به من حلم جميل ترى الناس يأوون إليه لا يخافون منه ظلماً ولا هضما . ولقد كان سنداً قوياً لأخيه حينما تنزل النوازل ، ولقد كان ظاهراً للناس معروفا بكرمه وكثرة رواده وأتباعه :

وكان قوى الشخصية له وقار وهيبة يتكلم الناس أمامه بحذر وتلطف

لم يكن أبداً بخيلا فى بيته ولا جبانا حينما يلتقى بالأعداء ، وكان يسرع لنجدة المكروب وإغاثة الملهوف قد وضع أمواله لخدمة الناس جميعا ولأجل فضيلة الكرم وكأنه قد عقد مع الكرم عهداً وحلفا لا ينفك مدى الدهر .

وإن حلمه كان يزينه ويصفى عليه وقاراً وسكينة وحبا ومؤالفة للناس ولرواده إنه كان يعامل أهله وأحبابه وقومه معاملة طيبة لها مذاق العسل أما حينما يلتقى بالأعداء فهو أسد هصور ينكل بهم أشد تنكيل ويوقع بهم أقسى أنواع العقوبة لله دره فارسا كم كانت الدنيا زاهية تنصره وكم كان اليوم جميلا والليل صافيا ضاحكا حين يكون هذا الفارس يخوض غمرات القتال .

لقد ضم القبر بين رحابه مجدنا ومعروفنا حين كانت تنزل بنا النوائب .

لقد كان المرثى أطولنا قامة وإذا تسابق الرجال إلى الخير بزهم جميعا ونال الفضل والخير كل ذلك ليكون سنداً للناس حين ينزل بهم القحط وتشتد بهم الحال ، ويكون بيته قريباً منهم يقصدونه بنفس راضية وقلوب ضاحكة مستبشرة ، لما يعلمون عنه من فضـــل وكرم وأنه فاز بأعلى المكرمات .

الآن يبكيك الأسير والغريب والجائع وكل من يحتاج إلى حنان ومساعدة يذرفون عليك الدمع لعلهم يجدون فى ذلك عزاء وسلوى .

٣ — وصفه بالكرم والفضل مرة أخرى :

٢٩ — كأن أبا المغوار لم يوف مرقبا
إذا ربأ القـــوم الكرام رقيب
٣٠ — ولم يدع فتيا ناكراما لميسر إذا اشتد من ريح الشتاء هبوب
٣١ — يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه
إذا لم يكن فى المنقيات حلوب

٣٢ — إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم
كفى ذاك وضاح الجبين أريب
٣٣ — وداع دعا يامن يجيب إلى الندى
فلم يستجبه عنـــد ذاك مجيب
٣٤ — فقلت أدع وارفع الصوت دعوة
لعل أبا المغوار منك قريب
٣٥ — يجبك كما قد كان يفعل إنه نجيب ، لأبواب العلاء طلوب
٣٦ — أتاك سريعا واستجاب إلى الندى
كذلك قبل اليوم كان يجيب
٣٧ — كأن لم يكن يدعو السوابح مرة
بذى لجب تحت الرماح مهيب
٣٨ — فتى أريحى كان يهتز للندى كما أهتز ماضى الشفرتين قضيب
٣٩ — على خير ماكان الرجال خلاله
وما الخير إلا طعمة ونصيب
٤٠ — غياث لعان لم يجد من يعينه ومختبط يغشى الدخان غريب
٤١ — حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب
٤٢ — معنى إذا عادى الرجال عداوة
بعيد إذا عادى الرجال قريب
٤٣ — غنينا بخير حقبة ثم جلحت علينا التى كل الأنام تصيب
٤٤ — فأبقت قليلا ذاهبا وتجهزت
لآخر والراجى الحياة كذوب
٤٥ — واعلم أن الباقى الحى منهما إلى أجل أقصى مداه قريب
٤٦ — لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى
على يومه علق على حبيب
٤٧ — جمعن النوى حتى إذا أجتمع الهوى
صد عن العصا حتى القناة شعوب

٤٨ - فإن غاب منهم غائب أو تخاذلوا كفى ذاك منهم والجناب خصيب
٤٩ - كأن أبا المغوار ذا الجد لم تجب به البيد عنس بالفلاة جنوب
٥٠ - علاة ترى فيها إذا حط رحلها ندوباً على آثـارهن ندوب
٥١ - وإنى لباكيه وإنى لصادق عليه وبعض القائلين كذوب
٢٩ - كأن أبا المغوار لم يوف مرقبا إذا ربأ القوم الكرام رقيب

المرقب والمرقبة : الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب ، وأوفيت عليه وأوفيت فيه : أشرفت وعلوت . وعدى الفعل هنا بنفسه إما على نزع الخافض وإما لتضمنه معنى « أتى » ، ربأ القوم : اطلع لهم على شرف .

وكأن للتحقيق ، أبا المغوار: المرثى ، والبيت كناية عن استعداده الدائم يقول إن أبا المغوار على استعداد فى كل وقت لملاقاة أكرم الناس وفى الأصمعيات والجمهرة : القوم الغزاة بدلا من القوم الكرام وعلى كلا الحالتين فهو على أتم استعداد لملاقاة الغزاة أو أعيان القوم .

٣٠ - ولم يدع فتيـــانا كراما لميسر إذا اشتد من ريح الشتاء هبوب

الميسر : كان العرب يتقامرون بضرب القداح على الإبل يقسمونها فى المحتاجين ، وأكثر مايفعلون ذلك فى الشتاء وحين الجدب .

« إذا اشتد من ريح الشتاء هبوب » كناية عن القحط . والمعنى يقول الشاعر : إن أخاه فى أيام الشتاء حين ينزل بالناس قحط شديد كان يقوم بإغاثتهم دون أن يستعين بكرام القوم .

٣١ - يبيت الندى يا أم عمرو ضجيعه إذا لم يكن فى المنقيات حلوب

المنقيات : ذوات النقى وهو الشحم ، حلوب : التى تحلب يريد الناقة وحذف الهاء من حلوبة ، قليل - الندى : الكرم . الضجيع المضاجع وهو الذى يضع جنبه على الأرض بجوارك وهذا كناية عن نسبة الكرم إلى المرثى

والمعنى : أن المرثى اشتهر بالكرم حتى لازمه وتراه يضحى بماله فى سبيل المكرمات ولم ينج منه إلا ما كانت تدر لبناً ينتفع به فى إكرام الناس وإغاثتهم .

٣٢ - إذا شهد الأيسار أو غاب بعضهم
كفى ذاك وضاح الجبين أريب

شهد : حضر ، الأيسار : جمع يسر - بفتحتين - الضريب أو النظير أريب : عاقل . وضاح الجبين : كناية عن كرمه وحسن أخلاقه .

والمعنى إذا نزل بالناس نوائب الدهر قام المرثى بدفع هذه النوائب سواء حضر فى المجلس كل نظرائه أو بعضهم .

٣٣ - وداع دعا يامن يجيب إلى الندى
فلم يستجبه عند ذاك مجيب

٣٤ - فقلت ادع أخرى وارفع الصوت دعوة
لعل أبى المغوار منك قريب

٣٥ - يجبك كما قد كان يفعل إنه بأمثالها رحب الذراع أديب

٣٦ - أتاك سريعاً واستجاب إلى الندا كذلك قبل اليوم كان يجيب

٣٧ - كأن لم يكن يدعو السوابح مرة بذى لجب تحت الرماح مهيب

الندى : الكرم . يستجبه : يجبه . والإجابة والاستجابة بمعنى . وفى الجمهرة : « هل من مجيب » . فيكون الاستفهام للاستبعاد : أى يستبعد أن أن يلبى نداء الكرم غيرَ المرثى . وتنكير « داع » يشير إلى أن المرثى كان يجيب أى نداء يصدر :

« لعل أبا المغوار منك قريب » ويروى لعل أبى المغوار . ويكون الاسم بعد « لعل » مجروراً بها فى لغة عقيل ، ويستشهد النحاة بالبيت بهذه الرواية

على هذا ـ وأبو المغوار : هو المرثى . رحب الذراع : كناية عن سعة أخلاقه وكرمه الأصيل . أديب : مؤدب وكريم . السوابح : الخيل سميت بذلك لسبحها بيدها فى سيرها . اللجب : الجلبة والصياح .

والمعنى يقول : مامن مرة ينزل بالقوم ما يدعو إلى البذل والسخاء وتتطلع القوم إلى من يمد يديه بالكرم فلا يجدون الكرم والخير إلا من أبى المغوار . إنه كان موصوفا بذلك قبل مماته وكان ينهض سريعا إلى إغاثة الملهوف وإعانة ذى الحاجة لقد كان يفعل ذلك بنفسه وعلى الخيل السوابح التى لها منظر مهيب فى الحروب .

٣٨ ـ فتى أريحى كان يهتز للندى كما اهتز ماضى الشفرتين قضيب
٣٩ ـ على خير ما كان الرجال خلاله وما الخير إلا طعمة ونصيب
٤٠ ـ غياث لعان لم يجد من يعينه ومختبط يغشى الدخان غريب

الأريحى : الواسع الخلق المنبسط إلى المعروف . وما مضى الشفرتين السيف القاطع . ومضاء السيف : قطعه . والقضيب : القاطع أيضا يشبه اهتزازه وتمايله من الفرح بسبب الكرم باهتزاز السيف القاطع وهذا التشبيه يوحى بكرم أبى المغوار وصرامته وقوته ، فهو كريم عن قوة وحكمة وعقل . خلاله : جمع خله بفتح الخاء جمعها خلال بكسر الخاء .

طعمة : قسمة أو منحة من الخالق جل وعلا « العانى : الأسير . والمختبط السائل . يغشى : يأتى أو يقصد .

وفى قوله : « فتى أريحى » إيجاز بحذف المبتدأ « هو فتى أريحى » .

وفى قوله : « وما الخير إلا طعمة ونصيب » أسلوب قصر من قصر الموصوف على الصفة طريقه النفى والاستثناء .

والمعنى : لقد كان المرثى يقدم المعروف والخير بقلب منشرح وصدر

رحب . لقد كان يتحلى بأعلى صفات الرجولة وسبحان من قسم صفات الخير بين الناس إنه كان يغيث الملهوف ويفك الأسير ويجيب السائل الغريب المحتاج للطعام والمأوى .

٤١ - حليم إذا ما الحلم زين أهله   مع الحلم فى عين العدو مهيب

هو حليم لإيجاز بالحذف والمعنى : إنه صبور حليم فى مواقف الصبر والحلم ، ولكن حلمه ليس عن ضعف وذلة بل عن قوة وبطش ولذا كان قويا مهيبا فى نظر أعدائه .

٤٢ - معنى إذا عادى الرجال عداوة   بعيد إذا عاد الرجال قريب

المعنى : المكلف بالشىء . وتعنى : تجشم وتحمل . والعناء : التجشم والتحمل ولقد كانت له منزلة بين قومه تبعده عن قومه ، ولكنه كان إذا نزل بهم أمر كان أقرب الناس إليهم يدافع عنهم ويزود عن حياضهم . وبين بعيد وقريب طباق .

٤٣ - غنينا بخير حقبة ثم جلحت   علينـــا كل التى الأنام تصيب

جلحت : أى صممت وقصدت فذهبت بنا وأكلتنا فأفرطت . وحقبة : دهراً . الأنام : المخلوقات .

يقول . لقد سعدنا بالحياة فترة ثم أتت علينا المصائب من كل جانب ففقدنا أخا عزيزاً لدينا عشنا بعده فى سهر دائم وحزن طويل .

٤٤ - فأبقت قليلا ذاهبا وتجهزت   لآخر والراجى الحياة كذوب

والراجى الحياة . المؤمل فى الحياة : وروى والراجى الخلود .

وهذه هى سنة الله فى الحياة كتب الموت على كل حي فمن تمنى الخلود فأمنيته كاذبة .

٤٥ — وأعلم أن الباقى الحى منهما
إلى أجـــل أقصى مـــداه قريب

والمعنى : لا مفر من قضاء الله فلكل أجل كتاب ، وأن الموت قضاء حتمى على كل إنسان .

٤٦ — لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى
عـــلى يومه علق عـــلى حبيب

العلق : النفيس — يعنى أخاه ، يقول : كم كانت حياتنا رائعة ناعمة ولكن موت أخيه عكر صفوها وذهب بجمالها .

٤٧ — جمعن النوى حتى إذا اجتمع الهوى
صد عن العصا حتى القناة شعوب

العصا : الإجتماع . وفى اللسان : العصا تضرب مثلا للاجتماع ، ويضرب انشقاقها مثلا للإفتراق الذى لا يكون بعده اجتماع ، وذلك لأنها لا تدعى عصا إذا أنشقت .

والقناة : الرمح . أو العصا المستوية ، وقيل والمعوجة أيضاً ، والمعنى : لقد جمعت بيننا الأيام بعـــد تفرق ، ولكنها عادت ففرقت بيننا بموت أخى .

٤٨ — فإن غاب منهم غائب أو تخاذلوا
كفى ذاك منهم والجناب خصيب

الجناب : الفناء . والفنا خصيب : يريد أنه كثير الخير .

يقول : عندما يقصر كرام الناس أو يتخاذلوا عن بذل المعروف ، يجد المحتاجين فى كرم أبى المغوار ما يكفيهم ويسد حاجتهم .

٤٩ — كأن أبا المغوار ذا المجد لم تجب
به البيد عنس بالفلاة خبوب

٥٠ — علاة ترى فيها إذا حط رحلها
ندوبا على آثارهن ندوب

العنس : ناقة صلبة الفلاة : القفر أو المفازة التى لاماء فيها لم تجب : لم تقطع ولم تطف ، خبوب : سريعة . علاة : ناقة شديدة . حط رحلها : وضع الرحل . والرحل : مركب للبعير أو ما يستصحبه من الأثاث . والندبة : أثر الجرح الباقى على الجلد ، جمعه ندب ، وأنداب وندوب،وكأن هنا للتحقيق .

والمعنى : لقد حرمت الصحراء من أبى المغوار فكم كان يجوبها ويساعد فيها الضعيف وابن السبيل وذا الحاجة ، وكان من كثرة تنقلاته وركوبه تصاب الناقة النجيبة بالكلال والإعياء .

٥١ — وإنى لباكيه وإنى لصادق
عليه وبعض القائلين كذوب

فبكل الصدق أبكيه ، وبكل جوارحى أرثيه ، ولست من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

ج — حكمه وتجاربه للحياة

٥٢ — وحد ثتمانى أنما الموت فى القرى
فكيف وهذا روضة وقليب

٥٣ — وماء سماء كان غير مجمة
بداوية تجرى عليه جنوب

٥٤ — ومنزلة فى دار صــدق وغبطة
وما اقتال من حكم على طبيب

٥٥ — بعينى أو يمــنى يدى وقيل لى
هو الغانم الجذلان حين يؤدب

٥٦ — لعمرى كما إن البعيد لما مضى
وإن الذى يأتى غدا لقريب

٥٧ — وإنى وتأميلى لقاء مؤمل
وقــد شعبته عن لقاى شعوب

٥٨ — كداعى هديل لايزال مكلفا
وليس له حــتى الممات مجيب

٥٩ — سقى كل ذكر جاءنا من مؤمل
على النأى زحاف السحاب سكوب

---

٥٢ — وحدثتمانى أنما الموت فى القرى
فكيف وهــذا روضة وقليب

القرى : من المساكن والأبنية والضياع ، وقد تطلق على المدن .

القليب : البئر . يقول : قلتما إنما الموت فى القرى ، وقد خرج به إلى الفلاة ، وكان قد قيل له أخرج بأخيك من الأمصار فيصح ، والاستفهام فى قوله « فكيف وهذا روضة وقليب » للتحسر وفيه إثارة ومشاركة وإلهــاب .

٥٣ — وماء سماء كان غير محمة
بداوية تجرى عليــه جنوب

المحمة : موضع الحمى . الداوية : الفلاة التى يسمع فيها دوى وفى رواية

« بجمة » بالجيم ، والجم : مستقر الماء ، وفي الأصمعيات : « مخمر » : أي غير مغطى ، وذلك أنفى لفساده ، الجنوب : الريح التي تقابل الشمال ، قال الأصمعي : « إذا جاءت الجنوب جاء معها خير وتلقيح » .

وهأنذا قد خرجت بأخي إلى هذه الفلاة حيث الهواء النقي المحمل بالخير والنتاج وهذا الماء النقي الطاهر الذي يحيي الموات .

ومع ذلك امتدت إليه يد المنون حيث لاراد لقضاء الله فلكل أجل كتاب .

٥٤ — ومنزلة في دار صـــدق وغبطة
وما اقتال من حكم على طبيب

الغبطة : النعمة التي يغبط عليها . اقتال : احتكم .

يقول : إن أخاه لم يمرض فيحتاج إلى طبيب .

٥٥ — بعيني أو يمنى يدى وقيل لي
هو الغانم الجذلان حين يؤوب

الجذلان : الفرحان . والمعنى ، لوكانت سنة الله قضت بجواز افتداء الميت لفديناه بأعز ما نملك حتى لوكانت عيني التي أبصربها ويمناي التي أبطش بها .

٥٦ — لعمر كما إن البعيد لما مضى
وإن الذي يأتي غـــدا لقريب

يقسم الشاعر بعمره أن الذي مضى لارجعة له، وأن ما يأتي به المستقبل عما قريب سنراه . ونرى الشاعر حشد القسم والتأكيد « بأن » وإسمية الجملة وطابق بين البعيد والقريب كل ذلك ليفرغ لنا إحساسه العميق بمدى تجربته الشعرية .

٥٧ — وإنى وتأميلى لقاء مؤمل وقد شعبته عن لقاى شعوب

٥٧ — كداعى هـــديل لايزال مكلفا
وليس له حتى الممات مجيب

٥٩ — سقى كل ذكر جاءنا من مؤمل
على النأى زحاف السحاب سكوب

شعبته : فرقته . شعوب : المنية . التأميل : الرجاء . هديل : الهديل صوت الحمام أو خاص بوحشيها . هدل يهدل . وفرخها أو ذكرها أو هو فرخ على عهد نوح عليه السلام مات عطشا وضيعة . أوصاده جارح من الطير . فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه .

والنأى : البعد . وزحاف السحاب فالمـــل سقى أول البيت وزحاف السحاب : مواضع وقع قطره . وسكوب المطر : الهطلان الدائم .

يقول الشاعر : سأظل طول عمرى أبكى أخى الذى فرقت بينى وبينه المنية سأظل أناجيه كما يناجى الحمام أخاه الذى فقده من قديم ولم يجبه أحد حتى الآن . إنى أدعو لقبر أخى بالسقيا وأن يتغمده الله برحمته فهذا أقصى مايملكه الانسان فى مثل هذه المواقف .

أهمية القصيدة :

قال أبو هلال العسكرى : «قالوا : ليس للعرب مرثية أجود من قصيدة كعب بن سعد الغنوى التى يرثى فيها أخاه أبا المغوار(١)» . وهى دمعة وفاء من الشاعر لأخيه الذى كان سندا له وقت الحاجة وقلبا نابضا يلجأ إليه فى كل وقت أراد .

---

(١) ديوان المعانى جـ٢ ص١٧٨

وقد بدأ الشاعر قصيدته بحوار بينه وبين سليمى أعطى للقصيدة نفساً قويا ؛ فلم يطلب من العين البكاء من أول الأمر كما فعلت الخنساء فى بكاء أخيها حينما تقول :

أعينى جــودا ولا تجمدا ألا تبكيان على صخر الندى

والقصيدة من الشعر الحى الذى يستمد قوته من الذكرى ويستلهم صدق الإحساس وقوة العاطفة من إخوة الدم ووشائج القربى .

وتدل القصيدة على أن الشاعر كان يجيد تصوير العواطف فى أسلوب فنى أعجب النقاد القدماء أمثال الأصمعى الذى يرى أن هذه القصيدة هى التى جعلت كعب بن سعد الغنوى من الفحول .

الوحدة العضوية للقصيدة

الوحدة الموضوعية فى القصيدة ظاهرة فهى فى موضوع شعرى واحد هو الرثاء - وأن لاخلود فى الدنيا ولكل أجل كتاب .

ولاشك أن وحدة الغرض تعطى القصيدة قيمة فنية كبيرة إذ تبدو وكأنها عمل فنى كامل اجتمعت فيه عناصر الجمال وبرزت فيه آيات الحسن والإبداع .

والوحدة العضوية فى القصيدة ظاهرة إذ توجد فى القصيدة وحدة فنية تتمثل فى الأفكار والمعانى والصور والخيالات ، والموسيقى ، والعاطفة والانفعال الشعرى .

فالقصيدة من أولها إلى آخرها تسير على نغمة واحدة ووزن وواحد وهدف واحد وترمى إلى إبراز محاسن أبى المغوار وكيف أن فقده كان حدثا عظيما .

غير أننا نجد الشاعر قد كرر الصفات التي وصف بها أخاه تكرارا ظاهرا فهو حينما يصفه بالكرم يعبر عن هذه الصفة بتعبيرات مختلفة فهو «مفضال اليدين وهوب»، وهو «عظيم رماد القدر»، وهو «رحب فناؤ»، وهو حلال الروابي وبارز للناس، وهو حليف الندى وأخو شتوات وإذا حل لم يقص المحلة بيته وليس بخيلا في بيته، والندى يبيت ضجيعه، ويدعو الندى والندى يدعوه وهو يستجيب إلى الندى، وهو غياث للاثير والجائع ويهتز للندى فهذه الصفات كلها بمعنى واحد هو «الكرم» فلماذا عدد كعب بن سعد الغنوي وكرر هذا التكرار؟ والجواب أن بعض هذا يكفي لو كان كعب يخبر خبرا هادئا لا انفعال فيه ولا توتر، وإنما كعب قال هذه القصيدة وهو متأثر بأخيه تأثرا بالغا، فلابد له أن يكرر ويعدد، والتكرار وسيلة إلى افراغ مافي نفسه حتى يستطيع أن يؤثر في السامعين ويهزهم ويحرك مشاعرهم فكعب حينما يبكي هذه الصفة «صفة الكرم» ويرددها بدون ملل فهو يقصد أن يؤثر في نفوس الذين يقدسون هذه الصفة ويعرفون لها قدرها وشرفها.

وإذا تحدث الشاعر عن صفة «الشجاعة» نراه يعبر بتعبيرات مختلفة فهو فتى الحرب وسمامها وهو لا يبالي أن يكون بجسمه شحوب إذا نال الخلال الكريمة وهو ليس ورعا عند اللقاء وهيوب، وهو ليث غضوب عندما كان يلتقي بالأعداء.

وعندما يصفه بالحلم - يضع لحلمه حدا فهو حليم إذا ما الحلم زين أهله - أما الحلم الذي يصبح قريبا من الجبن أو الخوف فيحرص الشاعر أن يبعد المرثي عنه.

ثم يصفه بقوة الشخصية فيقول: إن الرجال لاينطقون بما يشين أمامه وهو بينهم وضاح الجبين، وهو الذي يقوم بحاجات الناس إذا اشتدت ريح الشتاء واحتاج الناس للمساعدة.

ثم نجد الشاعر يصف الحياة قبل فقد أخيه وبعد فقده له فلا يخرج عن المعنى المعروف «بأن الموت هادم اللذات ، ومفرق الجماعات» .

ولكن الشاعر يصور هذا المعنى فى صور مختلفة ، فالموت أفسد الحياة وصدع العصا ، وقضى على فخره ومجده، وضاع عيشه الناعم الحلو وأصبح عيشه مراً لا يستساغ .

والحق أن الصياغة الشعرية فى القصيدة لطيفة عذبة تنم عن شخصية الشاعر وذاتيته فى التعبير ، وعن مقدرته اللغوية الكاملة وعن موهبته الشعرية الأصيلة .

على أن القصيدة يسودها جو نفسى عام سواء كانت فى الأبيات التى تتحدث عن صفات أبى الغوار أو الأبيات التى تتحدث عن حال الدنيا وتقلباتها تجد النغمة واحدة والرنين واحدا فأنت حينما تنشد قوله مثلا : -

حليم إذا ما الحلم زين أهـــله   مع الحلم فى عـين العدو مهب

تحس بالحسرة والألم على فقد هـذا الرجل نفس الإحساس تجده مع النغمة والوزن والقافية فى قوله حينما يتحدث عن حال الدنيا وتقلباتها :

غنينا بخـير حقبة ثم جلحت   علينا التى كل الأنام تصيب

وقد يقال إن الشاعر لم يرتب الحديث عن أخيه فهو إذ يتكلم عن كرم أخيه تراه يتكلم عن حلمه ثم عن شجاعته ثم يعود فيتكلم عن كرمه وهكذا ، والجواب عن ذلك كما قلنا فى ظاهرة التكرار التى تبدو فى القصيدة ـ نقول هنا أيضا أن الشاعر كان متوتر الأعصاب والتجربة الشعرية مسيطرة عليه سيطرة كاملة وهول المصيبة كان عليه كبيرا ، جعلته لم يتكلف ترتيب الأفكار بل ترك لنفسه العنان يقول كل ما يرضى رغبته ويخفف لوعته ويشفى ألم الفراق ووحشة البعد وهول المصيبة .

فالشاعر فى قصيدته إن لم يرض عقلنا لكنه أرضى شعورنا حينما تفاعلنا معه وأحسسنا بألمه وتصورنا هذا الشاعر وقد دار حول أخيه ينظر إليه من كل جانب فتارة ينظر إلى مكانته بين الناس ثم فجأة يخطر بباله كرمه ثم يقفز باله إلى شجاعته وهكذا .

ولعل عدم الترتيب الذى لا يرضى عقولنا ـ هو الذى جعلنا نحس تجربة الشاعر ونحس توتره وألمه وحسرته ونشاركه أساه ولوعته .

وكان للصور الشعرية فى هذه القصيدة ـ المتمثلة فى التشبيه لا المجاز والكناية وحسن التعليل والمبالغة وألوان الخيال عامة ـ أثر كبير فى تعميق المعانى ونقل تجربة الشاعر إلينا بصورة واضحة ومقنعة مؤثرة فالخيال . كما نعلم ـ هو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة وإشعالها وأخيرا إذا كان القدماء قد رفعوا من شأن هذه المرثية فلا يسعنا إلا نحمد لهم هذه النظرة ، فالمرثية سجل حافل لطرق التعبير المختلفة ميدان تعليمى لا بأس به يساعد على النهوض بفن التعبير ، وتذوق عناصر الجمال فى الفن القولى الجميل .

تم الجزء الأول بحمد الله

محتويات هذا الجزء

كتب للمؤلف

١ ــ النظم العربى بين النظرية والتطبيق	ط المحمدية
٢ ــ العبور فى علم المعانى	ط المحمدية
٣ ــ من أسرار النظم العربى	ط المحمدية
٤ ــ البلاغة والنصوص (مع آخرين)	ط الأمانة

كتب تحت للطبع

١) أثر قضية الإعجاز فى تدوين البلاغة العربية

٢) الاستعارة نشأتها وأطوار فى البلاغة العربية

٣) بلاغة السبكى

٤) وحينئذ نزل الوحى

٥) وعندئذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم